

## الفصل الرابع

### مُثل وأخلاقيات

○ قيمة الأخلاق

○ شرح الديوان

## قيمة الأخلاق

لو سُئل أكبر فلاسفة الدنيا أن يوجز علاج الإنسانية كله في حرفين لما زاد على القول: إنه ثبات الأخلاق، ولو اجتمع كل علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوروبية ويحصروا ما يعوزها في كلمتين لقالوا: ثبات الأخلاق. فليس ينتظر العالم فلاسفة ولا علماء ولا مبدعين يبدعون له بدعا جديدة، وإنما هو يترقب من يفسر له الإسلام تفسيرا صحيحا، ويثبت للدنيا أن كل العبادات الإسلامية ما هي إلا وسائل عملية لتثبيت الأخلاق في نفوس البشر..

إن الإسلام يوجب على كل مسلم أن يكون إنسان الدرجة التي انتهى إليها الكون في سموه وكماله، وفي قلبه على منازله بعد أن صُفي في شريعة بعد شريعة وتجربة بعد تجربة وعلم بعد علم. إن الإسلام يقرر ثبات الخلق ويوجبه وينشئ النفس عليه ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته لأن هناك حدودا في الإنسانية تتميز بحدود في الحياة، ولا بد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكون وضعا إلا وراءه تقدير ولا تقديرا إلا معه حكمة ولا حكمة إلا فيها مصلحة..

الأخلاق هي الطريقة التي تنظم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه.

وحين يقع الفساد في المجتمع تنمحي آداب الناس ويلتوى ما كان مستقيما وتشتبه العالية والسافلة وتُطرح المبالاة بالضمير الاجتماعي،

ويقوم وزن الحكم فى اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجرى العبرة فيما يعتبرونه بالردائل والمحرمات، ولا يُعجب الناس إلا بما يفسدهم، فهناك إمساك للخلق السليم على فرد ولا بد من تحول الفرد فى حقيقته إذ كان لا يجىء أبداً إلا متصدعا فى كل مظاهره الاجتماعية فأينما وقع فى أعمال الناس جاء مكسورا أو مثلوما.. وما شذ من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفراد من الحكماء فهم قوة التحويل.. يُبعث أحدهم ليبدأ به مسار التغيير فى التاريخ ليتطرق الناس بهم إلى طرق جديدة.. وهكذا الحكماء الناضجون فى هذه الإنسانية أمكنة بشرية محصنة لحفظ كنوزها وإحرازها فى أنفسهم، فلهم فى ذات أنفسهم عصمة ومنعة كالجبال فى ذات الأرض.

وهكذا عاش الشافعى.. حاز العلم بين عضديه ثم جال فى النفوس البشرية سائحا باحثا عن القضية لينشرها فى الآفاق.. وابتعثه الله على رأس مائة عام ليصلح ما أفسدته الطبايع البشرية.. فصار مبعوثا من العناية الإلهية لحماية البشرية من الضياع بعد انتكاسة الأرواح بسبب الشهوات المتبعة والانحرافات المتتالية والجرائم الإنسانية غير المحدودة والتى يسطرها التاريخ فى صفحاته ولا يمحوها الزمن ولا تزيلها أيدي السنين.

\* \* \*

## شرح الديوان

الرضا بقضاء الله وقدره والصبر على المكاره

دع الأيام تفعل ما تشاء وطب<sup>(١)</sup> نفسا إذا حكم القضاء  
ولا تجزع<sup>(٢)</sup> لحادثة الليالي<sup>(٣)</sup> فما لحواث الدنيا بقاء  
وكن رجلا على الأهوال<sup>(٤)</sup> جلدا<sup>(٥)</sup> وشيمتك<sup>(٦)</sup> السماحة والوفاء

### شرح الأبيات

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>(٧)</sup>.  
ويقول ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد  
إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر  
فكان خيرا له» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى

(١) طب: من طاب يطيب: لذ وحلا وحسن وجاد. ويقال: طابت النفس بكذا: أي  
انشرفت.

(٢) الجزع: ضد الصبر.

(٣) حادثة الليالي: مصائبها ومنها أحداث الدهر: مصائبه ونوائبه.

(٤) الأهوال: جمع هول من هال يهول هولاً، ومنه هال الأمرُ فلانا أفزعنا. والأهوال هنا:

المخاوف والمصائب.

(٥) جلداً: شديداً قويا، من جلد.

(٦) شيمتك: خلقك، والشيمة: الخلق.

(٧) سورة الزمر الآية ١٠.

يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة». [رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح].

والصبر من الأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المؤمن، فبهذا الخلق تؤدي العبادات وتُنجز الأعمال ويتميز الصابر عن غيره سلوكاً وعملاً ويكتب له الفوز في الدنيا والآخرة.

ويكفى الصبر شرفاً أن يكون اسماً من أسماء الله تعالى، فمن أسمائه جل جلاله «الصبور» - هكذا بصيغة المبالغة - فما أكثر صبر الله تعالى على عباده فهو الذى خلقهم، وهو الذى رزقهم، وهو الذى عافاهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾<sup>(١)</sup>.

وبعد هذا يعصيه الخلق ويتجرأون على معصيته:

عجبتُ لجاهل عاص	يبارزه بعصيانه
ويسمع صوته الحانى	يناديه بقرآنه
أنا التواب يا عبدى	ومن ترجو لإحسانه
فيعرض من شقاوته	مطيعاً وحى شيطانه
ولو يدري لعاد إليه	يسكب ماء أجفانه

والصابر الحق هو الذى لا يستطيل مدة صبره حتى لا يتطرق اليأس إلى قلبه وذلك كما قال تعالى فى سورة آل عمران:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٠٠.

قال أحد العارفين: «البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصبر عليها إلا صديق» ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: «إن الجائع عند غيبة الطعام أصبر منه إذا حضرت الأطعمة اللذيذة وقدر عليها، ومن العصمة ألا يجد، وبذلك قد يكون الحرمان نوعا من العصمة».

إن الإنسان في هذا الزمان يعيش في هم كبير حينها يظن أن الدنيا أو حياته هو على وجه الخصوص عبارة عن سلسلة متصلة من المسرات والملذات والنجاحات، وهو غير مجانب للصواب حينما يعلم أنها في حقيقتها ما هي إلا مزيج من السعادة والشقاء وخليط من السراء والضراء، ولو كانت الدنيا كلها سعادة وهناء لكان أولى أن ينعم بها الرسل والأنبياء وهم أكرم الخلق على الله، وصفوته من عباده وأماؤه على وحيه وسفراؤه إلى خلقه.. ولكن انظر كيف كانوا أشد الخلق بلاء وأعظمهم مجاهدة وأكثرهم صبرا على تحمل المصائب والمشاق والشدائد، وما كانوا كذلك إلا لكي يكونوا لنا قدوة لكي نتعلم منهم جميعا - عليهم الصلاة والسلام- الصبر على قضاء الله في السراء والضراء.

وفي هذا الزمان أصبح الإنسان عجولا ومتسرعا لا يرضى بقضاء الله إذا لم يكن حسب رغبته وهواه، وهذا يدل على ضعف إيمانه.. وقد وعد الله الصابرين بثواب غير محدد ومكافأة لهم على تكبدهم مشاق الصبر وآلام كظم الغيظ وضبط النفس وقهرها على مواجهة الشدائد، فالصابرون يوفون أجورهم بغير حساب.

وقال حكيم: لا تحمل الأمس فوق ظهرك لأنك لو فعلت فسوف تسير محني الظهر وحدك وسط هامات عالية، فالأمس موت والغد حياة، والموتى لا يعودون.

وقيل: إن في المصائب ينبوعا للقوة ومصدرا للوحي ولولا ذلك ما كان  
المصلحون والأنبياء.

وقيل: لا تُدفع نوائب الدهر إلا بعزائم الصبر.  
وقال حكيم لولده:

يا بنى إياك والجزع على مافات والطمع فيما لا يُرجى، فما اشتد  
خطب إلا وأعقبه فرج، ولا انسد باب إلا وسوف ينفرج، فإن الله عز  
وجل قد جعل مع العسر يسرين، وجعل في الصبر خير الدارين، وما زال  
مع الصبر الظفر والأنس، ومع الجزع الكدر واليأس، فاختر لنفسك وما  
يدنيك إلى الله ويقربك واطرح عنها ما يُحزنك ويكربك.

عليك إذا ضاقت أمورُك والتوت بصبر فإن الضيق مفتاحه الصبر  
ولا تشكون إلا إلى الله وحده فمن عنده تأتي الفوائد والنصر

لما أحس الإسكندر بدنو أجله كتب إلى أمه يصبرها على مصابها فيه  
بمواظب ذكرها في كتابه، ثم قال لها: يا أمه إذا أفتتِ فاصنعى طعاما  
لذيذا وشرابا سائغا حلوا وأحضرى له كافة الناس ونادِ فيهم ألا يحضره  
من نابته من الدهر نائبة ولا من أصابته من الزمان مصيبة ليكون مآتم  
الإسكندر خلافا عن مآتم العامة، ويكون لك في ذلك الذكر والصيت.

فلما مات امتثلت لوصيته وتفننت في صنع الطعام والشراب، ودعت  
الناس إليه بما ذكرها به، فلم يأتيها أحد فقالت: ما بال الناس مع  
تقدمنا إليهم تخلفوا عنا؟ فقيل لها: أمرت ألا يحضر الطعام من أصابته  
مصيبة، وكل الناس نزلت بهم المصائب ونابتهم النوائب، فاتعظت

وقالت: يا إسكندر ما أشبه أواخرك بأوائلك، أردت والله أن تعزيني عن فقدك التعزية الكاملة.

وقال ابن مسعود: «الدنيا كلها غموم، فما كان منها في سرور فهو ربح».

وقال الإمام الجنيد رحمه الله: لست أستبشع ما يرد على من العالم، لأنني قد أصلت أصلا، وهو أن الدنيا دارهم وغم وبلاء وفتنة، وأن العالم كله شر، ومن حكمه أن يتلقاني بكل ما أكره، فإن تلقاني بكل ما أحب فهو فضل، وإلا فالأصل هو الأول.

فتوطين العبد على المحن في دنياه يهون عليه ما يلقاه ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه، كما قيل في المعنى:

يُمَثَّلُ نُو اللَّبِّ فِي لَبِهِ	شِدَائِدُهُ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَا
فَإِنْ نَزَلَتْ بَغْتَةً لَمْ تُرْعَهُ <sup>(١)</sup>	لَمَّا كَانَ فِي نَفْسِهِ مُثْلَا
رَأَى الْأَمْرَ يُفْضِي إِلَى آخِرِ	فَصَيَّرَ آخِرَهُ أَوْلَا
وَنَوَّ الْجَهْلَ يَأْمَنُ أَيَّامَهُ	وَيَنْسَى مِصَارِعَ مَنْ قَدْ خَلَا
فَإِنْ دَهَمَتْهُ صُرُوفُ الزَّمَانِ	بِبَعْضِ مِصَانِبِهِ أَعْوَلَا
وَلَوْ قَدَّمَ الْحَزْمَ فِي نَفْسِهِ	لَعَلَّمَهُ الصَّبْرَ عِنْدَ الْبَلَا

فمن جعل الصبر معتمده في نوازله، واعتدده من أعظم عدده ووسائله فهو مصيبٌ في رأيه مُنْجِحٌ في سعيه، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب كان عاملا فيما يزيده ضرا ويكسبه وزرا ويفوته أجرا وناهيك به خُسرًا.

(١) تُرْعَهُ: أى لم تفزع، والرُّوع هو شدة الخوف.

إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتجأ  
لا تياسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا  
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

أما الرضا فهو التسليم الكامل والاطمئنان إلى قضاء الله ، وهو مرتبة  
تعلو الصبر وتفوقه .. ففي وصية رسول الله ﷺ لابن عباس رضى الله  
عنهما قال : «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل ، وإن لم  
تستطع فاصبر فإن فى الصبر على ما تكرهه خيرا كثيرا» .

والسبيل إلى مقام الرضا علم العبد أن الله عز وجل عدل فى قضائه  
غير متهم فيما يحكم ، ومخرج الرضا من حُسن الظن بالله تعالى والمعرفة  
بأن الله تعالى غير جائر فى حكمه ويسهل الرضا على العبد إذا عرف  
عواقب الأمور وأن اختيار الله عز وجل خير من اختياره لنفسه ﴿رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (١) .

وقال ﷺ : «من رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط»  
[أخرجه الطبرانى فى الأوسط] .

رضيت وقد أرضى إذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضا من له الأمر  
فإذا قلت : ما وجود الرضا فى القلب؟ فأقول : علم القلب بتوفيق الله  
عز وجل وأنه نعمة من الله تعالى حيث أسعدك وهداك للبصيرة ومن  
عليك بالرضا فعندئذ يكون للشكر هياج فى القلب يقويك على دوام الرضا  
عن الله عز وجل . ويحتاج الراضى إلى سبب يثبت به وهو خوف السلب

(١) سورة البينة الآية ٨ .

ومعرفة التقصير في الشكر لله عز وجل عليه فهذان الحالان يزيدان في  
قَدْر الرضا في كل أحوال المريدين.

رُوي أن النبي ﷺ سأل طائفة من أصحابه: «من أنتم؟ فقالوا: مؤمنون،  
فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نصير على البلاء ونشكر عند الرخاء  
ونرضى بمواقع القضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة» [حديث ضعيف].  
وقال ﷺ: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب  
فقركم وإلا فلا» [تحاف السادة].

من لوازم الرضا «رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ  
نبياً» أن ترضى عن ربك سبحانه وتعالى، فترضى بأحكامه وترضى  
بقضائه وقدره، خيره وشره، حلوه ومُره. إن الانتقائية بالإيمان بالقضاء  
والقدر ليست صحيحة، وهي أن ترضى فحسب عند موافقة القضاء  
لرغباتك وتتسخط إذا خالف مرادك وميلك فهذا ليس من شأن العبد.  
إن قوما رضوا بربهم في الرخاء وسخطوا في البلاء وانقادوا في النعمة  
وعاندوا وقت النقمة؛ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَيَّ  
وَجْهَهُ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ (١).

لقد كان الأعراب يسلمون فإذا وجدوا في الإسلام رغداً بنزول الغيث  
ودراً لبن ونبت وعشب، قالوا: هذا دين خير، فانقادوا وحافظوا على  
دينهم، فإذا وجدوا الأخرى؛ جفاف وقحط وجدب واضمحلال في  
الأموال وفناء للمرعى، نكصوا على أعقابهم وتركوا رسالتهم ودينهم..  
هذا إذن إسلام الهوى، وإسلام الرغبة للنفس.. أما من يؤمن بالله

(١) سورة الحج الآية ١١.

فيرضى عن الله عز وجل لأنه يريد وجه الله وما عنده تعالى يبتغى من الله فضلا ورضوانا ويسعى للآخرة.

إن الرضا بوابة الديانة الكبرى منها يلج المقربون إلى ربهم، الفرحون بهداه، المنقادون لأمره، المستسلمون لحكمه.

ما المال والأيام ما الدنيا وما تلك الكفوز من الجواهر والذهب  
ما المجد والقصر المنيف وما المنى ما هذه الأكداس من أغلى النشب  
لا شيء كل نفيسة مرغوبة تفنى ويبقى الله أكرم من وهب

حين وزع الرسول ﷺ أموالا قال لأصحابه:

«إنى أعطى أناسا لما جعل الله في قلوبهم من الجزع والطمع، وأدع أناسا لما جعل الله في قلوبهم من الإيمان أو الخير منهم: عمرو بن تغلب». فقال عمرو بن تغلب: كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها.

هب الدنيا تساق إليك عفوا أليس يصير ذاك إلى زوال  
فما ترجو بعيش ليس يبقى وشيكا قد تغيره الليالي  
وما دنياك إلا مثل ظل أظلك ثم آذن بارتحال

### الإنفاق والسخاء

وإن كثرت عيوبك في البرايا<sup>(١)</sup> وسرّك أن يكون لها غطاء  
تستر بالسخاء<sup>(٢)</sup> فكل عيب يغطيه كما قيل السخاء

(١) البرايا: المخلوقات ومفردها برية والأصل بهمزة والفعل برا.

(٢) السخاء: الجود، والسخي: الجواد.

ولا تُر للأعادي<sup>(١)</sup> قَطْ ذِلاً فإن شماتة الأعداء بلاءٌ  
ولا تُرُجُ<sup>(٢)</sup> السماحة<sup>(٣)</sup> من بخيلٍ فما فى النار للظمان ماءٌ

### شرح الأبيات

تظهر الحكمة جلية فى هذه الأبيات، كما يظهر العلم بنفوس الناس والعلم بمكارم الأخلاق، فقد سافر الشافعى ورحل كثيراً وعاشر خلقاً كثيرين فاكتسب حكمة واسعة ودراية بالأمور. والجود بذل المال وأنفعه ما صُرف فى وجه استحقاقه وقد ندب الله تعالى إليه فقال: ﴿لَنْ نَسْأَلَكَ الْرَحْمَةَ تَتَفَعَّلُوا مِمَّا نُحِبُّونَ﴾<sup>(٤)</sup>. وقيل إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد. وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو فى مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار، وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطى بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخياً إذا كان لا يستصعب العطاء.

قال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه قال ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده

(١) الأعادى: جمع عدو وتجمع كذلك على أعداء، والفعل عادى والعدو هو ضد الصديق. ومن يرجو لك الهلاك.

(٢) تُرُجُ: تأمل.

(٣) السماحة: الجود والعطاء والصفح والفضل، من سمح سماحا وسماحة أى جاد وسمح له أعطاه.

(٤) سورة آل عمران الآية ٩٢.

كلما عثر وفتح له كلما افتقر» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.  
وعن جابر بن عبد الله قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا» وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد عن النار، والبخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل»<sup>(١)</sup>.

وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.  
قال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فددق عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته فقال: على دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكيا فقالت له زوجته: هلا تعلت حيث شئت عليك الإجابة؟ فقال: إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى أن يسألنى. وقد قيل فى كرم معن بن زائدة:

يقولون معن لا زكاة لماله	وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجب فى دياره	من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جئته متهللا	كأنك تعطيه الذى أنت نائله
تعود بسط الكف حتى لو أنه	أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن فى كفه غير نفسه	لجاد بها فليثق الله سائله

تقلب الدنيا بأهلها وتغدو بهم قال أنس رضى الله تعالى عنه: «ما من

(١) ذكره السيوطى فى اللآلئ المصنوعة وابن الجوزى فى الموضوعات.

(٢) سورة سبأ الآية ٣٩.

يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه ، سمعت ذلك من نبيكم ﷺ .

وكان معاوية رضى الله عنه يقول : «معروف زماننا منكر زمان قد مضى ، ومنكره معروف زمان لم يأت» .

وكانت ناقة النبي ﷺ العذباء لا تُسبق ، فجاء أعرابي فسبقها ، فشق ذلك على الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، فقال ﷺ : «إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من هذه الدنيا إلا وضعه» .

أفٍ للدنيا إذا كانت كذا أنا منها فى بلاء وأذى  
إن صفا عيش امرئ فى صبحه جرعته ممسيا كأس الردى  
ولقد كنت إذا ما قيل من أنعم العالم عيشا قيل ذا  
وقيل :

رُب يوم بكيت منه فلما صرتُ فى غيره بكيت عليه

وينبغى على العبد إذا تقلبت به الدنيا أن يستتر حاله ويُجمل فى المسألة ؛ يُروى أن عبد الرحمن الداخل كان ببعض مجالسه فمثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه فقال : يا ابن الخلفاء الراشدين والسادة الأكرمين إليك فررت وبك عُذت من زمن ظلوم ودهر غشوم ؛ قلّ المال وكثر العيال وشعث الحال فصير إلى نذاك المآل ، وأنت ولى الحمد والمجد والرجو للرفد ، فأجابه عبد الرحمن على الفور : سمعنا مقالتك وقضينا حاجتك وأمرنا بعونك على دهرك ، على كُرهننا لسوء مقالك ، فلا تعودنّ ولا سواك لمثلته ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف

فى الطلبة، وإذا ألم بك خطب أو مر بك أمر فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك كما تستر عليك خلتك وتكف شماتة العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالك وما لكنا عز وجل بإخلاص الدعاء وصدق النية. أعطى عبد الرحمن فأحسن العطاء ووعظ فأحسن الوعظ وأرشد السائل إلى ما ينبغى أن يكون عليه عند السؤال ليصون ماء وجهه، فلا يريقه، وليحفظ على نفسه عزتها فلا يستذلها، وإنه لتواضع جميل أن يقول عبد الرحمن: ارفع إلينا حاجتك فى رقعة لا تعدوك بعد رفعك لها إلى مالك ومالكى عز وجل بإخلاص الدعاء وصدق النية.

ولا ترجُ السماحة من بخيل فما فى النار للظمان ماءً

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ (١). وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم» أخرجه أبو داود فى السنن. وقال ﷺ: «البخل جامع لمساوى القلوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء».

وقالت أم البنين أخت عمر بن العزيز: «إن البخل لو كان قميصا ما لبسته أو كان طريقا ما سلكته».

وهبنى جمعت المال ثم خزنته وحانت وفاتي هل أزد به عمرا  
إذا خزن المال البخيل فإنه سيورثه غما ويعقبه وزرا

وقيل عن بخيل استهزئ به:

(١) سورة النساء الآية ٣٧.

يا أيها الخارج من بيته وهاربا من شدة الخوف  
ضيفك قد جاء بزادٍ له فارجع وكن ضيفا على الضيف!!

فراجى السماحة والبذل من البخيل كمن يرجو الماء القراح من الحجارة  
أو- كما قال الشافعي- كمن يرجو الماء الزلال من النار!!

### القناعة

ورزقك ليس ينقصه التأنى وليس يزيد في الرزق العناء<sup>(١)</sup>  
ولا حزن يدوم ولا سرور ولا بؤس<sup>(٢)</sup> عليك ولا رخاء  
إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

### شرح الأبيات:

يقول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾<sup>(٣)</sup>.  
ويقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾<sup>(٤)</sup>.  
وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل  
الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير» [رواه مسلم].  
قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة.  
وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم

(١) العناء: التعب والنصب والفعل عنى والمصدر عناء.

(٢) البؤس: الحاجة والفقر والبأس العذاب، وتقول: بؤس وبؤس وبئس الرجل بالكسر

بؤسا وبئسا اشتدت حاجته.

(٣) سورة الفرقان الآية ٥٨.

(٤) سورة الطلاق الآية ٣.

على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماسا وتعود بطانا»  
أخرجه أحمد في المسند.

حكى أنه في زمان هارون الرشيد حصل للناس غلاء سعر وضييق  
حال حتى اشتد الكرب على الناس اشتدادا عظيما فأمر الخليفة هارون  
الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء وأمر بكسر آلات الطرب، وفي بعض  
الأحيان رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى فحُمِلَ إلى الخليفة الرشيد فسأله  
عن فعله ذلك من دون الناس فقال إن سيدي عنده خزانة بر وأنا متوكل  
عليه أن يطعمني منها فلماذا أنا إذا لا أبالي فأنا أرقص وأفرح فعند ذلك  
قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله  
أولى فسلم للناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

ولا تجزع إذا أعسرت يوما      فقد أيسرت في الزمن الطويل  
ولا تظنن بربك ظن سوء      فإن الله أولى بالجميل  
وإن العسر يتبعه يسار      وقول الله أصدق كل قيل  
فلو أن العقول تسوق رزقا      لكان المال عند ذوى العقول!

وعلى المرء القناعة فإن القنوع أغنى الناس وأروحهم بالا فالرزق يساق  
إلى المرء ويتبعه كأجله..

اقنع بأيسر رزق أنت نائله      واحذر ولا تتعرض للإرادات  
فما صفا البحر إلا وهو منتقص      ولا تعكر إلا في الزيادات

قال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، فقال: «عليك باليأس مما في  
أيدي الناس وإياك والطمع فإنه فقر حاضر» [أخرجه الطبراني في  
الجامع الكبير].

وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟  
 فقالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش.  
 وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك  
 معها من فوقك.

إذا كنت تبغى العيش فابغ التوسطا فعند التناهى يقصر المتناول

\* \* \*

وإن القناعة كنز الغنى فصرت بأذيالها ممتسك  
 فلا ذا يرانى على بابهِ ولا ذا يرانى له منهمك  
 فصرتُ غنيا بلا درهم أمر على الناس شبه الملك

ويقول آخر:

إذا طاوعت حرصك كنت عبدا لكل دنيئة تدعى إليها  
 وقال آخر:

وذى حرص تراه يلم وفرا لوارثه ويدفع عن حماه  
 ككلب الصيد يمسك وهو طاو فريسته ليأكلها سواء  
 وقال آخر وأجاد:

لا تغضبن على امرئ لك مانع ما فى يديه  
 واغضب على الطمع الذى استدعاك تطلب ما لديه  
 وقال آخر:

أيا من عاش في الدنيا طويلا  
وأفنى العمر في قيل وقال  
وأتعب نفسه فيما سيفنى  
وجمّع من حرام أو حلال  
هب الدنيا تقاد إليك عفوا  
أليس مصير ذاك إلى الزوال؟!

### فناء الدنيا

ومن نزلت بساحته المنايا  
وأرض الله واسعة ولكن  
ع إذا نزل القضا ضاق<sup>(١)</sup> القضاء  
دع الأيام تغدر<sup>(٢)</sup> كل حين  
فما يغنى عن الموتِ الدواء

### شرح الأبيات:

لما مرض معاوية رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لى فراشا وأسندونى وأوسعوا رأسى دهانا ثم اكحلوا عينى بالإثمد ثم ائذنوا للناس يدخلون ويسلمون علىّ قياما ولا تجلسوا عندى أحدا ففعلوا ذلك فلما خرجوا من عنده أنشأ يقول:

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعض  
وإذا النية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع

ومن وصية على رضى الله عنه لأبى ذر: زر القبور تذكّر بها الآخرة، ولا تزرها بالليل، وغسل الموتى يتحرك قلبك، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله تعالى.

(١) ضاق: فى رواية حُم القضاء.

(٢) ترك الوفاء وهو على وزن فَعَلَ بفتح العين ومضارعه يفعل.

ونظر فيلسوف إلى ميت يُحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد.

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل  
واستنزلوا بعد عز من معاقلهم فأودعوا حفرا بنس ما نزلوا  
ناداهم صارخ من بعد ما قُبروا أين الأسرة والتيجان والحلل  
أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تُضرب الأستار والكلل  
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل  
قد طالما أكلوا دهرا وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا  
أضحت منازلهم قفرا معطلة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فعلى العبد أن يتذكر دائما أنه يحمل الموت وأنه يسعى إلى الموت  
وأنه ينتظر الموت صباح مساء، وما أحسن الكلمة الرائقة الرائعة التي  
قالها على بن أبي طالب رضى الله عنه: «إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة  
وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء  
الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل».

كل شيء بقضاء وقدر والمنايا عبر من عبر

إن الموت لا يستأذن على أحد ولا يحابي أحدا ولا يجامل أحدا،  
وليس له إنذار مبكر يخبر به الناس ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا  
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

إن الإنسان يجبن من المخاوف وينخلع قلبه من مظان المنايا وإذا  
بالمآمن تقتله ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا  
عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ .

### قيمة التضرع والدعاء

أتهزأ بالدعاء وتزدرية<sup>(٢)</sup> وما تدرى بما صنع الدعاء  
سهام الليل لا تخطى ولكن لها أمد<sup>(٣)</sup> وللأمد انقضاء

### شرح الأبيات

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ  
عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾<sup>(٢)</sup>.  
إن لطف الله سار في العالم؛ في عالم الإنسان، في عالم الحيوان،  
في البر والبحر، في الليل والنهار، في المتحرك والساكن..  
صح أن سليمان عليه السلام قد أوتى منطق الطير.. خرج يستقى  
بالناس، وفي طريقه من بيته إلى المصلى رأى نملة قد رفعت رجليها  
تدعورب العزة، تدعو الإله الذي يعطى ويمنح ويلطف ويغيث فقال  
سليمان: أيها الناس عودوا فقد كفيتم بدعاء غيركم.

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨ .

(٢) تزدرية: تحتقره وتستهين به وهو من زَرَى عليه فعله: عابه، والمصدر زراية.

(٣) الأمد: الغاية ومنتهى الشيء والجمع أمد ومنه قوله تعالى: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾

أى الأجل.

(٤) سورة غافر الآية ٦٠ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

فأخذ الغيث ينهمر بدعاء تلك النملة.. النملة التي فهم سليمان عليه السلام كلامها، وفي كثير من الأحيان يأتي لطف الباري سبحانه وتعالى بسبب هذه العجماوات.

وقد ذكر أبو يعلى في أثر قدسى إن الله تعالى يقول: «وعزتي وجلالي لولا شيوخ رُكَّع وأطفال رُضع وبهائم رُتَّع لمنعت عنكم قطر السماء».

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ وقد قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فقال: لأن قلوبكم ماتت بعشر خصال.. عرفتكم الله ولم تقوموا بحقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا به، قلتم نحب رسول الله ﷺ وتركتم سنته، قلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له، قلتم إن الشيطان عدوكم وواطأتموه على المعاصي، قلتم نخاف النار ولم تهربوا منها، قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها، وأكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها. ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافتترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم فيكيف يُستجاب لكم؟

وفى حكم ابن عطاء الله يقول رضى الله عنه: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً» فإذا أورد الله تعالى عليك حاجة أو أنزل بك نازلة فاعلم أنه لا دافع لها سواه إذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هو له واضعاً؛ لثبوت توحيده فى أن لا فاعل سواه، وإذ هو غالب على أمره لا يغالبه أحد، فمن اعتمد على غير الله فهو فى غرور مما لا يدوم ولا يدوم شىء سواه فهو الدائم الباقي

(١) سورة غافر الآية ٦٠.

القديم الذى لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والإحسان فى كل نفس وحين وأوان وزمان. فيا بؤس القانطين من رحمته ويا بؤس من عصاه ولم يراقبه وثبت على محارمه ولم يستخ منه تعالى!!

ويقول ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه» [رواه الترمذى].  
وقال: «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد والكره فليكثر الدعاء فى الرخاء» [رواه الترمذى].

وآداب الدعاء كثيرة وأكدها تجنب الحرام مأكلا ومشربا وملبسا والإخلاص لله وتقدير عمل صالح والوضوء واستقبال القبلة والصلاة والجنو على الركب والثناء على الله والصلاة على نبيه ﷺ أولا وآخرا وبسط يديه ورفعها حذو منكبيه وكشفهما مع التأدب والخشوع والسكنة والخضوع، وأن يسأل الله تعالى بأسمائه العظام الحسنى والأدعية المأثورة، ويتوسل إلى الله تعالى بأبنيائه والصالحين بخفض صوت واعتراف بالذنب ويبدأ بنفسه ولا يخص نفسه إن كان إماما ويسأل بعزم ورغبة وجد واجتهاد، ويحضر قلبه ويحسن رجاءه ويكرر الدعاء ويلح فيه، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم ولا بأمر قد فرغ منه ولا بمستحيل ولا بتحجير، ويسأل حاجته كلها ويؤمن الداعى والمستمع ويمسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء ولا يستعجل أو يقول دعوت فلم يستجب لى.

ومن أهم أوقات إجابة الدعاء كما قال الإمام الشافعى:

سهام الليل لا تخطى ولكن لها أمد وللأمد انقضاء

ليلة القدر ويوم عرفة وشهر رمضان وليلة الجمعة ويوم الجمعة وساعة

الجمعة «وهي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة» والأقرب أنها عند قراءته الفاتحة حتى يؤمن» وجوف الليل ونصفه الثاني وثلثه الأول وثلثه الآخر ووقت السحر وعند النداء بالصلاة وبين الأذان والإقامة وبعد الحيعلتين للمتخير المكروب وعند الإقامة وعند الصف في سبيل الله وعند التحام الجيшин في الحرب ودُبُر الصلوات المكتوبات وفي السجود وعقب قراءة القرآن لا سيما الختم وعند قول الإمام ﴿وَلَا الصَّالِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وعند شرب ماء زمزم وصياح الديكة واجتماع المسلمين وفي مجالس الذكر وعند تغميض الميت وعند نزول الغيث.

وللدعاء أماكن يستجاب فيها ليس هذا محل ذكرها فيرجع فيها إلى محلها.. والله أعلم.

## جهد البلاء

أكثر الناس في النساء وقالوا      إن حب النساء جَهْدُ<sup>(٢)</sup> البلاءِ  
ليس حب النساء جهدا ولكن      قربُ من لا تحب جَهْدُ البلاءِ

### شرح الأبيات

لا يفهم من هذين البيتين أن الإمام ينفي فتنة النساء فالرسول ﷺ يقول محذرا أمته: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء» [متفق عليه]..

(١) سورة الفاتحة الآية ٧.

(٢) الجَهْدُ: بالفتح والضم الطاقة وقُرئ، بهما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ﴾ والجهد بالفتح: المشقة، ويقال جهد بالفتح.

لكن مدار البيتين إثبات أن حب النساء إن كانت ممن يحل للرجل  
 كزوجة أو أمة ليس جهداً للبلاء، وإنما الجهد حقاً أن يُفرض على المرء قرب  
 من لا يحبه ولا يوافق، فالحب والقرب لا يكون إلا بالموافقة وتجانس الطباع  
 والأخلاق وإلا فإن التنافر أكيد والعداوة تتبعه. لذلك عدّ الفلاسفة الصديق من  
 ضروب المستحيل حتى إن بعض الناس يقول: لقد صحبت الناس أربعين  
 سنة فما رأيتهم غفروا لي ذنبا ولا ستروا لي عيبا ولا حفظوا لي غيبا.  
 لذلك قال الحكيم:

إخاء الناس ممتزج	وأكثر فعلهم سَمِجُ
فإن بدهتك مقطعة	فما لذنوبهم فرجُ
فقومهم بهجرهم	فإن لم يهجروا اعتوجوا
صروف الدهر دانية	تقطع بينها المهجُ

لهذا جعل الصوفية العزلة ركنا من أركان الطريق فلا تجعل وقتك كله  
 مع الناس فإنهم يقطعونك عن الله.  
 وقد نُسب إلى إمامنا الشافعي قوله:

لقاء الناس ليس يفيد شيئا	سوى الهديان من قيل وقال
فابعد عن لقاء الناس إلا	لأخذ العلم أو إصلاح حال

فلا تجلس إلا مع أحد رجلين: رجل جلست إليه يعلمك خيرا فتقبل  
 منه، أو رجل تعلمه خيرا فيقبل منك، والثالث اهرب منه!!  
 وكما أوصى رسول الله أحد أصحابه فقال له: «وليسعك بيتك».  
 ويقول ابن عطاء السكندري في حكمه: «وما نفع القلب شيء مثل  
 عزلة يدخل بها ميدان فكرة».

«وليس معنى هذا أن يعتزل المرء الدنيا بل يختلط بقدر الضرورة،  
الضرورة التي تعينه على إقامة الخلافة وتحقيق العبودية الصادقة وإكمال  
شعائر الدين، وتعمير الدنيا للآخرة، وأداء ما عليه من حقوق وواجبات  
فإذا ما فرغ منها سارع إلى العزلة ليسيح بقلبه في عالم الملكوت<sup>(١)</sup>».

### حق الأديب ومعادن الناس

أصبحتُ مُطْرَحاً<sup>(٢)</sup> في معشر جهلوا      حق الأديب فباعوا الرأس بالذنب<sup>(٣)</sup>  
والناس يجمعهم شمل<sup>(٤)</sup> وبينهم      في العقل فرُق وفي الآداب والحسب<sup>(٥)</sup>  
كمثل ماء الذهب الإبريز يشركه      في لونه الصُفر والتفضيل للذهب  
والعود لو لم تطب منه روائحه      لم يفرق الناس بين العود والخطب

### شرح الأبيات

هنا تبدو حكمة إمامنا ودرايته بنفسوس الناس وذلك لكثرة سفره  
وترحاله ومخالطته للكثير من الخلق وفطنته الكبيرة.  
وفي الحديث عن النبي ﷺ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا،  
واغزوا تغنموا» [رواه أحمد والطبراني]، وذكره السيوطي في الجامع  
بلفظ آخر وحسنه.

(١) الطريق إلى الله: الشيخ الراحل عبد السلام أبو الفضل تحقيق الدكتور أحمد عبد السلام  
أبو الفضل. دار البشير القاهرة.

(٢) المنطرح: الملقى.

(٣) باعوا الرأس بالذنب: استغنوا عن الأصول بالفروع، والذنب يفتح النون: الذيل.

(٤) شمل: رابط أو علاقة.

(٥) الحسب: عود البخور أو الفصن.

«سافروا تريحوا» ترجمة موجزة لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾<sup>(١)</sup>. فمن هاجر وغادر محل إقامته إلى أرض الله الواسعة فإنه سيجد في الأرض التي هاجر إليها خيرا يرغم به حُساده ومالا وقيرا يقيم أوده وعلما نافعا يقوم به خلقه ويصلح به أمور دينه ودنياه.

والشافعي حين يقول:

أصبحت مطرّحا في معشر جهلوا حق الأديب فباعوا الرأس بالذنب

ربما يقصد أصحاب الحديث حين عاب بعضهم عليه معرفته بالشعر وإنشاده له، والناس دوما يعيبون ما يجهلون خيره فالمرء عدو ما جهل كما أن رضا الناس غاية لا تُدرَك ولا تُنال - وعلى العاقل أن يفعل ما يراه حقا وعدلا ولا يحاول أن يُرضي الناس جميعا لأنه إن حاول ذلك أساء إلى نفسه ولم يُرضِ أحدا.. ومع هذا فسعة الخلق وبسطة الخاطر نعيم عاجل وسرور حاضر لمن أراد الله به خيرا، وسرعة الانفعال والحدة وثورة الغضب نكد مستمر وعذاب مقيم.

وعلى المرء ألا يركن إلى الدفاع المستمر عن نفسه فإن السب والشتم لن يضراه، يقول الرئيس الأمريكي «إبراهام لينكولن»: أنا لا أقرأ رسائل الشتم التي تُوجّه إليّ ولا أفتح مظروفها فضلا عن الرد عليها لأنني لو اشتغلت بها لما قدمت شيئا لشعبي.

(١) سورة النساء الآية ١٠٠.

﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿ فَأَصْفَحَ عَنْهُمْ وَقَلَّ سَلَمٌ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال حسان بن ثابت :

ما أبالي أنبَّ بالحرزَن تيسُ أو لِحاني بظهر غيبٍ لثيم

وبعد هذا يخبرنا الشافعي عن حال الناس فهم جماعة مترابطة في الهيئة لكنهم في حقيقة الأمر متفاوتون في العقل والآداب والحسب والنسب والغنى والفقر والدين والخلق فمثالهم الذهب الخالص والنحاس لكن التفضيل للذهب ، وكل قصد الشافعي إبراز قدر الأديب بين عامة الناس الذين هم كالمعدن الأصفر لكنه كالذهب الخالص النقي .

كما أنه كعود البخور طيب الرائحة الذي لولا رائحته الطيبة لم يعرف الناس الفرق بينه وبين عود الحطب !

### الحظوظ

تموت الأُسْدُ<sup>(٤)</sup> في الغابات جوعاً ولحم الضأن<sup>(٥)</sup> يُرمى للكلابِ  
وذو جهل ينام على حريير وذو علم ينام على التراب  
ولهذين البيتين رواية أخرى هي :

(١) سورة النساء الآية ٦٣ ، ٨١ ، سورة الأنعام الآية ٦٨ ، سورة السجدة الآية ٣٠ .

(٢) سورة الحجر الآية ٨٥ .

(٣) سورة الزخرف الآية ٨٩ .

(٤) الأُسْدُ : جمع مفردا أسد وتجمع كذلك على أسود ، والأرض التي تعيش فيها الأسود تسمى مأسدة والأنثى لبؤة .

(٥) الضأن : الغنم ، والفعل ضأن والمصدر ضأنا .

تموت الأسد في الغابات جوعاً      ولحم الضأن تأكله الكلابُ  
وعبد قد ينام على حريير      وذنو نسب مفارشه الترابُ

\* \* \*

عتبتُ على الدنيا لرفعة جاهل      وخفض لذي علم فقالت خذ العذرا  
بنو الجهل أبنائى لهذا رفعتهم      وأهل التقى أبناء ضرتى الأخرى  
أترك أبنائى يموتون ضيعة      وأرضع أبناً لضرتى الأخرى!؟

### شرح الأبيات

لا يُعطى ذو العلم وطالبه قدره بين الناس إلا إذا داهن وخالط الملوك  
وتلون في آرائه، وفضل العالم لا يُنكر فأقرب الخلق من الله العلماء،  
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ  
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث: «فضل العالم على العابد كفضلي  
على أدناكم».

وليس العلم - كما يقول ابن الجوزي - بمجرد صورته هو النافع،  
بل معناه، وإنما يُنال معناه من تعلمه للعمل به فكلما دله على فضل  
اجتهد فيه أو في نيته وكلما نهاه عن نقص بالغ في تجنبه ومباعدته  
فحينئذ ينكشف له مستور العلم ويسهل عليه طريقه فيصير كمجتذب  
يحث الجاذب فإذا حركه عجل في سيره.  
والذى لا يعمل بالعلم لا يطلعه العلم على غوره ولا يكشف له عن سره  
فيكون كمجذوب لجاذب جاذبه.

(١) سورة فاطر الآية ٢٨.

(٢) سورة الزمر الآية ٩.

والعلم فهم الأصول ومعرفة المعبود وعظمتها وما يستحقه والنظر في سير الرسول ﷺ وصحابته والتأدب بآدابهم وفهم ما نقل عنهم، هذا هو العلم النافع الذى يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال. لكن العالم إذا حقر نفسه أمام نفسه لا ينبغي أن يحقرها أمام العامة فللعلم هيبتُه ومكانته وحُرْمته لكنَّ الجهال فى زمن الشافعى - وفى زماننا - سادوا الناس بجهلهم وأصبح العالم وطالب العلم لا يلقى ما يستحقه من كرامة ومكانة لأنَّ الجهل فضِّل على العلم وأصبح الجاهل بالعلوم الشرعية والدنيوية - إذا حاز مالا - يتيه بين الناس وأصبح الحكام لا يعطون لطلاب العلم حقهم فى حياة كريمة - إلا من رحم الله - إلا من داهن وتغافل عن العيوب والمساوئ والأخطاء الشرعية.. وأصبح المال فى يد رؤوس الجهال وانقلب ميزان العدل فصار الجاهل مكرما لماله وصار العلم وطالب العلم مهانا لفقره.. والله المشتكى!

ومن خالط الحكام من العلماء خسر دينه وهو مع ذلك فى غير مأمن من عزل أو قتل أو سم، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم وفى ذلك هلاكه.

### مظاهر الشيب ومحاسن الأعمال

خبث نار<sup>(١)</sup> نفسى باشتعال مفارقى<sup>(٢)</sup> وأظلم ليلى إذ أضاء شهابُها

(١) خبث النار: طُفئت.

(٢) المِفرق: وسط الرأس وهو الذى يفرق فيه.

أيا بومة<sup>(١)</sup> قد عشتت فوق هامتي<sup>(٢)</sup> على الرغم منى حين طار غرابها  
 رأيت خراب العمر منى فزرتنى ومأواك من كل الديار خرابها  
 أنعم عيشا بعد ما حلّ عارضي<sup>(٣)</sup> طلائع شيب ليس يُغنى خضابها؟!<sup>(٤)</sup>  
 إذا اصفر لون المرء وابيض شعره تنغص<sup>(٥)</sup> من أيامه مستطابها  
 فدع عنك سوءات الأمور<sup>(٦)</sup> فإنها حرامٌ على نفس التقى ارتكابها  
 وأدّ زكاة الجاه<sup>(٧)</sup> واعلم بأنها كمثل زكاة المال تم نصابها<sup>(٨)</sup>  
 وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام اكتسابها  
 ولا تمشين فى منكب الأرض<sup>(٩)</sup> فاخرا فمما قليل يحتويك ترابها  
 ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها وسيق إلينا عذبها وعذابها  
 فلم أرها إلا غرورا وباطلا كما لاح<sup>(١٠)</sup> فى ظهر الفلاة<sup>(١١)</sup> سراها<sup>(١٢)</sup>  
 وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همُّون اجتذابها

(١) البومة: طائر.

(٢) الهامة: الرأس والجمع هام، وهامة القوم رئيسهم.

(٣) العارض: صفحة خد الإنسان ومنه المثل: خفيف العارضين أى: خفيف شعر عارضيه.

(٤) الخضاب ما يلون به الشعر من حناء ونحوه.

(٥) تنغص: تكدر وساء.

(٦) سوءات الأمور: قبيحها وساقطها.

(٧) الجاه: القدر والمنزلة.

(٨) النصاب: المقدار الذى تجب فيه الزكاة.

(٩) منكب الأرض: الطريق والجمع: مناكب.

(١٠) لاح: لاح يلوح لوحا بدأ وظهر.

(١١) الفلاة: الصحراء الواسعة والجمع فلا وفلوات.

(١٢) السراب: الذى تراه نصف النهار وكأنه ماء فى الصحراء.

فإن تجتنبها كنت سلماً لأهلها      وإن تجتذبها نازعتك كلابها  
فطوبى لنفس أولعت<sup>(١)</sup> قعر دارها      مُغلقة الأبواب مُرخى<sup>(٢)</sup> مجابها

### شرح الأبيات

ينعى الشافعي نفسه فقد رأى الموت ظاهراً له حين ابيضت مفارقه،  
وقد رأى خراب عمره ويؤكد أن العيش لن يصفو له بعد ما حلَّ بعارضه  
من الشيب الذي لن يتمكن من إخفائه أى خضاب!!  
وتبدو الحكمة ظاهرة في الأبيات ويظهر فيها النصح لكل البرية، فهو  
يظهر الدنيا على حقيقتها عارية من الزخارف والزينة.

إذا اصفرّ لون المرء وابيض شعره      تنغص من أيامه مستطابها  
فحين يبيض الشعر ويصل الإنسان إلى مرحلة الكبر في السن تتنغص  
كل أيامه ولا يجد راحته في أى موضع.  
ثم تبدو النصيحة بالعمل الصالح لقرب الأجل ولتحسن الخاتمة.

فدع عنك سوءات الأمور فإنها حرام على نفس التقى ارتكابها  
وأد زكاة الجاه واعلم بأنها كمثل زكاة المال تم نصابها  
وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام اكتسابها  
ولا تمشين في منكب الأرض فاخرا فعمما قليل يحتويك ترابا  
ابتعد أيها الإنسان عن كل الخطايا والمعائب فإن التقوى حاجز  
بينك وبينها، والتقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا

(١) أولعت: أحببت أشد الحب.

(٢) مُرخى: مغطى مسدول.

بالقليل، وأد حق الجاه وعلو الشرف والمكانة بالدفاع عن المساكين ورعاية حقوقهم فطالما حث الله تعالى على الإحسان: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وأحسن كذلك إلى الأحرار والشرفاء تملك رقابهم:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإحسان إنسانا ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾<sup>(٣)</sup> وسوف يحتويك تراب الأرض بعد عزك وغرورك فوقها..

يقول ابن الجوزي: «من عجائب ما أرى من نفسى ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما فى أيدينا مع العلم بقصر العمر وأن زيادة الثواب هناك بقدر العمل هنا، فاحمل نفسك يا قصير العمر على المر واقمعهما إذا أبت ولا تسرح لها فى الطول فما أنت إلا فى مرعى».

ثم يبدأ فى التعريف بحال الدنيا فيقول إنها على حلاوتها غرور وباطل وقد ذاق عذبتها وعذابها فليست إلا كالسراب الخادع.. وكالجيفة النتنة «عليها كلاب همها اجتذابها» وعليها يتخاصم أصحابها الذين هم كالكلاب.

ثم يحذر منها فمن ترفع عنها سالم أهلها وسالموه وإن لهث خلفها لهثت خلفه كلابها وما ذاك إلا لحقارة شأنها وعمى أهلها عن حقيقتها.

(١) سورة الأعراف الآية ٥٦.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٤، ١٤٨، سورة المائدة الآية ٩٣.

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٧.

فطوبى «الجنة» لمن حبس نفسه فى بيته بعيدا عن فتنة الدنيا وأرخبى بينه وبين أهلها الحُجب، وفى العزلة عن الخلق سبب طيب العيش، فليدبر المرء أمره ويقلل العلائق ويحفظ جاهه فالأيام قلائل.

### الزهد

بلوتُ<sup>(١)</sup> بنى الدنيا فلم أرَ فيهم سوى من غدا والبخل ملء إهابه<sup>(٢)</sup>  
 فجردت من غمد القناعة صارما<sup>(٣)</sup> قطعت رجائى منهم بذبابه  
 فلا ذا يرانى واقفا فى طريقه ولا ذا يرانى قاعدا عند بابيه  
 غنى بلا مال عن الناس كلهم وليس الغنى إلا عن الشيء لا به<sup>(٤)</sup>

### شرح الأبيات

تأبى عزة نفس الشافعى أن توقفه مواقف الذل والشين، بعد أن خبر نفوس الناس فعرف فيها الحرص والبخل بالدرهم والدينار فاحتفى بدرع القناعة ولبس كسوة الزهد وقطع رجاءه إلا من الله وهذه شيم الكرام.

(١) بلوتُ: اختيرت وجربت.

(٢) الإهاب: على وزن كتاب: الجلد أو ما لم يدبغ.

(٣) الصارم: السيف القاطع، ذُباب السيف: حدُّه وأطرافه.

(٤) به: الهاء فى به راجعة إلى الشيء.

والقناعة هي الرضا بما دون الكفاية، والزهد والاقْتِصَارُ على الزهد أي القليل وهما يتقاربان؛ لكنَّ القناعة تقال اعتباراً برضا النفس والزهد يقال اعتباراً بالمتناول لحظ النفس، وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد، لذلك قال بعض المتصوفة: القناعة أول الزهد تنبيهاً على أن الإنسان أولاً يحتاج إلى قمع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل تعاطي الزهد، فالقناعة هي الغنى في الحقيقة:

غنى بلا مال عن الناس كلهم وليس الغنى إلا عن الشيء لا به  
ولذلك كان الله تعالى أغنى الأغنياء لأنه لا حاجة به إلى شيء.  
يقول عليه السلام: «ليس الغنى بكثرة العرْض وإنما الغنى غنى النفس»  
[رواه البخاري].

تمنى النفس ما يكفيك من سد خلةٍ فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا  
قيل لحكيم: لم لا تغتم؟ فقال: لأنى لم أأخذ ما يغمى.  
ولا يكون الزهد بترك المكسب كما توهمه قوم فبذا خراب الدنيا  
وهلاك العالم، فالزهد لا يحصل حقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ما هي،  
ويعرف عيوبها وآفاتنا ويتحقق ما يستغنى عنه منها، ويعرف الآخرة  
وافتناره إليها.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَبِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَدْ رَوْنُ إِنَّهُ لَدُو  
حَظٌّ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ  
وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْآصْفِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾<sup>(١)</sup>

(١) سورة القصص الآية ٧٩ - ٨٠.

ولأن الزاهد فى الدنيا راغب فى الآخرة وهو يبيعهما بها كما قال تعالى:  
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾<sup>(١)</sup>.  
ومحال أن يبيع كَيْسَ عينا بأثر إلا إذا عرفها وعرف فضل المبتاع  
على المبيع.

قيل لبعض الزهاد: ما أزهك وأصبرك؟ فقال: أما زهدى فرغبة فيما  
عند الله وهو أعظم مما أنت فيه، وأما صبرى فلجزعى من النار.

هب الدنيا تُساق إليك عفوا      أليس يصير ذاك إلى زوال  
فما ترجو بعيش ليس يبقى      وشيكا قد تغيره الليالى  
وما دنياك إلا مثل ظل      أظلك ثم آن بارتحال

### مصير الظالمين

إذا ما ظالم استحسن الظلم مذهباً      ولجَّ عتوا<sup>(٢)</sup> فى قبيح اكتسابه  
فكله إلى صَرْفِ الليالى<sup>(٣)</sup> فإنها      ستدعى له مالم يكن فى حسابه  
فكم قد رأينا ظالماً متمرداً      يرى النجم تبيها<sup>(٤)</sup> تحت ظل ركابه  
فعماء قليل وهو فى غفلاته      أناخت<sup>(٥)</sup> صروف الحادثات ببابه  
فأصبح لا مال ولا جاه يُرتجى      ولا حسنات تلتقى فى كتابه

(١) سورة التوبة الآية ١١١.

(٢) الاستكبار والتجبر، وقيل: العاتى هو المبالغ فى ركوب المعاصى، المتمرد الذى لا يقع  
منه الوعظ والتنبيه موقعا.

(٣) صَرْفِ الليالى: حدثانها ونوائبها ومصائبها.

(٤) تبيها: من تاه يتيه تبيها: تكبرا وتجبيرا.

(٥) أناخت: حلَّت وجلمت، والأصل: ناخ الناقة أبركها وأجلسها.

وَجُوزَى بِالْأَمْرِ الَّذِي كَانَ فَاعِلًا وَصَبَّ عَلَيْهِ اللَّهُ سَوْطَ عَذَابِهِ<sup>(١)</sup>

### شرح الأبيات

الظلم هو الانحراف عن العدل ولذلك حُدَّ بأنه: وضع الشيء في غير موضعه المخصوص به، وقد تقدم أن العدل يجرى مجرى النقطة من الدائرة فتجاوزها من جهة الإفراط عدوان وطغيان، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾<sup>(٢)</sup>. والانحراف عنها في بعض جوانبها جور، والظلم أعم الأسماء، ولما كان الظلم ترك الحق الجارى مجرى النقطة من الدائرة صار العدول عنها إما قريبا وإما بعيدا، فمن كان عنه أبعد كان رجوعه إليه أصعب ولذلك قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾<sup>(٣)</sup>. تنبيها إلى أن الشيطان متى أمعن في البعد من الحق صعب عليهم حينئذ الاهتداء، ولأجل من فعل بهم الشيطان ذلك قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُتَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

والظالم لا يكون ظالما لغيره حتى يظلم أولا نفسه، والعاقل من الناس إذا هم بالعدل وتحراه فقد عدل مع نفسه قبل أن يعدل مع غيره. وقيل: الظلم ثلاثة: الظلم الأعظم وهو الذى لا يدخل تحت شريعة الله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٥)</sup>.

والأوسط: وهو الذى لا يلتزم حكم السلطان.

(١) سَوْطُ عَذَابٍ: أشد العذاب.

(٢) سورة النساء الآية ١٦٧.

(٣) سورة النساء الآية ٦٠.

(٤) سورة فصلت الآية ٤٤.

(٥) سورة لقمان الآية ١٣.

والأصغر: وهو الذى يتعطل عن المكاسب والأعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منافعهم.

ومن خرج عن تعاطى العدل بالطبع وبالخُلُق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرغبة فقد انسلخ من الإنسانية، ومتى صار أهل كل صقع على ذلك فتهاوشوا وتغالبا وأكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم أثر لمن يمنعهم ويصدهم عن الفساد فقد تقدم أن عادة الله سبحانه فى أمثالهم إهلاكهم وإفناؤهم واستئصالهم عن آخرهم.

وهذا المعنى وارد فى قول الإمام الشافعى فى هذه الأبيات عن مآل كل ظالم:

فعما قليل وهو فى غفلاته أناخت صروف الحادثات ببابه  
فأصبح لا مال ولا جاه يُرتجى ولا حسنات تلتقى فى كتابه  
وجُوزى بالأمر الذى كان فاعلا وصب عليه الله سوطَ عذابه

يقول الله جلّ شأنه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

ويقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال رسول الله ﷺ: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام» [أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير].

وقال ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلمٍ أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة، فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئا يسيرا؟ قال: ولو كان

(١) سورة هود الآية ١٨.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢٢.

قضيها من أراك» [أخرجه مسلم وابن ماجه].

وفى الحديث: «إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه».

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم مصدره يفيض إلى الندم  
تنام عيناك والمظلوم منتجه يدعو عليك وعين الله لم تنم  
وقال أحدهم: لو أن الجنة - وهى دار البقاء - أسست على حجر من  
الظلم لأوشك أن تخرب.

وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة  
الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفك الدماء فإن له قاتلا لا يموت.  
وروى النبى ﷺ: يقول الله تعالى: «اشتد غضبى على من ظلم من  
لا يجد له ناصراً غيرى» [أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير].

### لا أبالى

أنت حسبى وفيك للقلب حسبُ  
لا أبالى متى وداك لى صحَّ  
ولحسبى إن صحَّ لى فيك حسبُ  
من الدهر ما تعرّض خطبُ  
وعند الله منها المخرجُ  
فُرجت، وكنت أظنها لا تُفرجُ  
ضاققت فلما استحكمت حلقاتها

\*\*\*

إذا أصبحت عندى قوتُ يومى  
ولا تُخطر هموم غدٍ ببالى  
فخلّ الهم عنى يا سعيد  
فإن غدا له رزقٌ جديد  
أسلم إن أراد الله أمراً  
فأترك ما أريد لما يريدُ

\*\*\*

يقول المرءُ فائدتي ومالي وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

\* \* \*

أَمْطِرِي لَوْلَا جِبَالِ سِرْنَدِي      بَ وَفِيضِي آبَارِ تَكَرُّورِ تَبْرَا  
أَنَا إِنْ عَشْتِ لَسْتُ أَعْدَمُ قُوْتَا      وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا  
هَمَّتِي هَمَّةُ الْمَلُوكِ وَنَفْسِي      نَفْسٌ حُرٌّ تَرَى الْمَذَلَّةَ كَفْرَا  
وَإِذَا مَا قَنِعْتُ بِالْقُوْتِ عَمْرِي      فَلَمَّاذَا أَزُورُ زَيْدَا وَعَمْرَا؟!

\* \* \*

الدَّهْرُ يَوْمَانِ ذَا أَمْنٍ وَذَا خَطَرٍ      وَالْعَيْشُ عَيْشَانِ ذَا صَفْوٍ وَذَا كَدَرٍ  
أَمَا تَرَى الْبَحْرَ تَعْلُو فَوْقَهُ جَيْفٌ      وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَاعِهِ الدُّرُرُ  
وَفِي السَّمَاءِ نَجُومٌ لَا عِدَادَ لَهَا      وَلَيْسَ يُكْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ  
وَمَا كُنْتُ رَاضٍ مِنْ زَمَانِي بِمَا تَرَى      وَلَكِنِّي رَاضٍ بِمَا حَكَمَ الدَّهْرُ  
فَإِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ خَانَتْ عَهْدَنَا      فَإِنِّي بِهَا رَاضٍ وَلَكِنِّي قَهْرُ

\* \* \*

تَوَكَّلْتُ فِي رِزْقِي عَلَى اللَّهِ خَالِقِي      وَأَيَقِنْتُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ رَازِقِي  
وَمَا يَكُ مِنْ رِزْقِي فَلَيْسَ يَفُوتُنِي      وَلَوْ كَانَ فِي قَاعِ الْبَحَارِ الْعَوَاقِي  
سَيَأْتِي بِهِ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِفَضْلِهِ      وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْي اللِّسَانُ بِنَاطِقِي  
فَفِي أَيِّ شَيْءٍ تَذَهَبُ النَّفْسُ حَسْرَةً      وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الْخَلَائِقِ  
لَوْ كُنْتُ بِالْعَقْلِ تَعْطَى مَا تَرِيدُ إِذَنْ      لَمَا ظَفَرْتُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَرْزُوقِي  
رِزْقَتْ مَا لَا عَلَى جَهْلٍ فَعَشْتُ بِهِ      فَلَسْتُ أَوْلَ مَجْنُونٍ وَمَرْزُوقِي

\* \* \*

رَأَيْتُ الْقِنَاعَةَ رَأْسَ الْغَنِيِّ      فَصَرْتُ بِأَذْيَالِهَا مَتَمَسِكًا  
فَلَا ذَا يِرَانِي عَلَى بَابِهِ      وَلَا ذَا يِرَانِي بِهِ مِنْهُمْ مَكًا  
فَصَرْتُ غَنِيًّا بِبَلَا دَرَاهِمٍ      أَمْرٌ عَلَى النَّاسِ شَبَهَ الْمَلِكِ

\*\*\*

إِنَّ الْمُلُوكَ بِلَاءٌ حَيْثَمَا حَلُّوا      فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَبْوَابِهِمْ ظُلٌّ  
مَاذَا تَوَمَّلَ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضَبُوا      جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضَيْتَهُمْ مَلُوءًا؟  
فَاسْتَغْنِ بِاللَّهِ عَنِ أَبْوَابِهِمْ كَرَمًا      إِنَّ الْوَقُوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذُلٌّ

\*\*\*

قَنَعْتُ بِالْقُوَّةِ مِنْ زَمَانِي      وَصَنْتُ نَفْسِي عَنِ الْهَوَانِ  
خَوْفًا مِنَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا      فَضَّلَ فُلَانٌ عَلَيَّ فُلَانِ  
مَنْ كُنْتُ عَنْ مَالِهِ غَنِيًّا      فَلَا أَبَالِي إِذَا جَفَانِي  
وَمَنْ رَأَى بَعِينَ نَقْصٍ      رَأَيْتُهُ بِأَلْتِي رَأَى  
وَمَنْ رَأَى بَعِينَ تَمًّا      رَأَيْتُهُ كَامِلَ الْمَعَانِي

\*\*\*

سَهَرْتُ أَعْيُنَ وَنَامَتِ عَيْوُنُ      فِي أُمُورٍ تَكُونُ أَوْ لَا تَكُونُ  
فَادِرًا أَلْهَمَ مَا اسْتَطَعْتَ عَنِ النَّفْسِ      سِ فَحَمَلَانِكَ الْهَمُومُ جَنُونُ  
إِنَّ رَبَّكَ كَفَاكَ بِالْأَمْسِ مَا كَا      نَ سَيَكْفِيكَ فِي غَدٍ مَا يَكُونُ  
أَمْتُ مَطَامَعِي فَأَرْحَتِ نَفْسِي      فَإِنَّ النَّفْسَ مَا طَمَعَتْ تَهْوُونَ  
وَأَحْيَيْتُ الْقَنْوَعُ وَكَانَ مَيْتَا      ففِي إِحْيَائِهِ عَرَضُ مَصُونُ  
إِذَا طَمَعَ يَحُلُّ بِقَلْبٍ عَبْدٍ      عُلْتَهُ مَهَانَةٌ وَعِلَاهُ هُونُ

## شرح الأبيات

جميع الأبيات السابقة لإمامنا المُنَّهَم الشافعي تحث على الثقة المطلقة في المولى عز و جل وحسن الاعتماد عليه والتوكل الكامل عليه ثم القناعة باليسير والبعد عن أبواب العباد- أو طلب شىء منهم - وعلى رأسهم الملوك وذلك كله متوفر في شخصية الشافعي فهو عفيف اللسان واليد متعفف عن كل ما في أيدي الخلق على الهمة يتميز بالأنفة والكبرياء والقناعة فهو يكتفي من الدنيا بأقل القليل مقتديا في كل هذا بسيد الخلق النبي المعصوم ﷺ فهو تلميذ في مدرسته ﷺ.

وكل ما يقوله الشافعي في هذه الأبيات مصداق قول رسولنا ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش».

وكل هم الشافعي متصل بمولاه جل وعلا:

وما يكُ من رزقي فليس يفوتني      ولو كان في قاع البحار العوامق  
سيأتي به الله العظيم بفضله      ولو لم يكن مني اللسان بناطق  
أسلم إن أراد الله أمرا      فأترك ما أريد لا يريد

«وربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك» كما يقول ابن عطاء الله في حكمه، فمَنَعُ الله تعالى عبده من نيل شهواته ولذاته، عطاء جزيل منه لأنه أبقاها معه واقتطعه عن حظوظه وأغراضه وجرده منها، وعكس هذا هو المنع - على التحقيق - وإن كان عطاء في الظاهر.

ولذا وكما يقول الشيخ محيي الدين بن عربي: اختر الترك على

الأخذ!! فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك فلن يعدم منه خيرا..

ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها، فمنعك جمال الحضرة وبهجتها.  
وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها.  
ربما أعطاك عز الدنيا ومنعك عز الآخرة، وربما منعك عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة.

ربما أعطاك التعزز بالخلق، ومنعك من التعزز بالحق، وربما منعك من التعزز بالخلق وأعطاك التعزز بالملك الحق.

وما أصدق قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وفى الاستغناء عن الخلق وسؤالهم عزة النفس وإبائها عن الدنيا والحاجة لغير الله:

قنعت بالقوت من زمانى	وصنت نفسى عن الهوان
خوفا من الناس أن يقولوا	فضل فلان على فلان
من كنت عن ماله غنيا	فلا أبالى إذا جفانى

وقوله:

لا تحملن لمن يمين	من الأنام عليك مينة
واختر لنفسك حظها	واصبر فإن الصبر جنة
من الرجال على القلو	ب أشد من وقع الأسنة

\*\*\*

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

لقلعِ ضُرْبِ وضربِ حبسِ      ونزعِ نفسِ وردُ أمسِ  
 وقرِ برِدِ وقودِ فردِ      ودبغِ جلدِ بغيرِ شمسِ  
 وأكلِ ضَبِّ وصيدِ دبِّ      وصرفِ حَبِّ بأرضِ فرسِ  
 أهونِ منِ وقفةِ الحرِّ      يرجو نوالاً ببابِ نحسِ!

روى الإمام أبو الحسن يحيى بن نجاح قال: إن عثمان بن عفان رضي الله عنه أرسل إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه بِصُرَّةٍ فيها نفقة على يد عبد له وقال للعبد: إن قبلها فأنت حر، فأتاه بها فلم يقبلها، فقال له العبد: اقبلها يرحمك الله فإن فيها عتقي، فقال أبو ذر: إن كان فيها عتقك ففيها رقي، وأبى أن يقبلها. مرَّ هذا إلى زهد أبي ذر وقناعته ورضاه بالكفاف «وكل ما سد فقرا فهو مقبول».

لقد علمت وما الإسراف من خلقي      أن الذي هو رزقي سوف يأتيني  
 أسعى له فيعنيني تطلبه      وإن قعدت أتاني لا يعنيني!  
 وفي أبياته يدعو الشافعي إلى القناعة، والغنى عما في أيدي الناس - خاصة الملوك - وذلك لكبر همته رضي الله عنه، وليس لكبر الهمة إفراط مذموم في الحقيقة، وكبير الهمة هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فيصير من خلفاء الله وأوليائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة، قال أعرابي: فلان عظمه صغر الدنيا في عينيه فكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يُكثر إذا وجد، وخارجاً من سلطان فرجه فلا يستخف له رأياً ولا بدنًا..

وحقُّ الإنسان أن يتلطف عن الدنيا فإنه وإن كان بعنصره حيوانا فهو بعقله وفكره ملك، وإذا ضيَّع نفسه صار شرا من البهيمة وذلك هو الخسران المبين.

وقد قيل: من عظمت همته لم يرض بقنية مُستردة وحياة مستعارة، فإن أمكنك أن تقتنى قنية مؤبدة وحياة مخلدة فافعل، فلا اعتداد بما له فناء. والكبير الهمة- على الإطلاق- من يتحرى الفضائل لا لجاه ولا لثروة ولا للذة ولا لاستشعار نخوة واستعلاء على البرية، بل يتحرى مصالح العباد شاكرا بذلك أنعمه تعالى ومتوخيا مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه؛ فإنه إذا عظم المطلوب قل المساعد، وطريق العلاء قليلة الأناس!!

### صفو الوداد والخل الصدوق

ومن يقضِ حق الجار بعد ابن عمه      وصاحبه الأدنى على القرب والبعد  
يعيش سيدا يستعذب الناس ذكره      وإن نابسه حق أتوه على قصد

\* \* \*

أقبل معاذير من يأتيك معذرا      إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا  
لقد أطاعك من يرضيك ظاهره      وقد أجلك من يعصيك مستترا

\* \* \*

قيل لي قد أسى عليك فلان      ومقام الفتى على الذلِّ عارُ  
قلت قد جاءني وأحدث غدرا      دية الذنب عندنا الاعتذار

\* \* \*

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا      فدعه ولا تُكثِر عليه التأسفا  
 ففي الناس أبدال وفي الترك راحة      وفي القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا  
 فما كل من تهواه يهواك قلبه      ولا كل من صافيته لك قد صفا  
 إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً      فلا خير في خِلٍ يجيء تكلفا  
 ولا خير في خِلٍ يخون خليله      ويلقاه من بعد المودة بالجفا  
 وينكر عيشاً قد تقادم عهدُه      ويُظهِرُ سرا كان بالأمس قد خفا  
 سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها      صديقٌ صدوقٌ صادق الوعد منصفا

\*\*\*

ومن الشقاوة أن تحب      ومن تحب يحب غيرك  
 أو أن تريد الخير للإن      سنان وهو يريد ضيرك

\*\*\*

زن من وزنك بما وز      نك وما وزنك به فزنه  
 من جا إليك فرح إليه      ومن جفاك فصد عنه  
 من ظن أنك دونه      فاترك هواه إن وهنه  
 وارجع إلى رب العباد      فكل ما يأتيك منه

### شرح الأبيات

من حبه الله إلى الناس فقد أنعم عليه نعمةً وسيدة كما أن من بغضه إليهم فقد جعل له نقمةً فظيمةً ، والسبب فيمن يكون محبباً أن من رعاه الله تعالى فصفى جوهره وأطاب روحه وحسن عمله حصل له نور يسرى



لهذا كله يحث الشافعي - وقد درس طبائع البشر - على فضيلة الاهتمام بحق الجار والقريبى والصداقة فمن فعل ذلك ساد الناس وعلا فيهم ذكره وأتوه فى نوابههم ووقفوا بجواره وساندوه فى نوابه إن كبه الدهر والدهر ذو كبوات.

وينبه الشافعي كذلك على أهمية قبول المعاذير.. وهذا لعمري أولى بالاتباع فالذنب إذا عوقب أو خاف المعتب لا ينفك عن أحد وجهين: إما أن يكون مُصرا أو معتذرا، فأما المُصر فقد يُستحسن فى بعض الأحوال التجافى عنه وقد سمع رجلا حكيمًا وهو يقول: ذنب الإصرار أولى بالاعتقار، فقال: صدق، ليس فضل من عفا عن السهو القليل كفضل من عفا عن العمد الجليل، وأما المعتذر فهو المظهر لما يحو به الذنب. وجميع المعاذير لا تنفك عن ثلاثة أوجه:

- إما أن يقول: لم أفعل.
- أو يقول: فعلت لأجل كذا فيبين ما يخرجُه عن كونه ذنبا.
- أو يقول: فعلت ولا أعود.
- فمن أنكر ما نُسب إليه فقد برئت ذمته.
- وإن فعل وجحد فقد يعد التغبى عنه كرما:

**تغبى وما به من غفلة لفرط الحياء وفضل الكرم**

- ومن أقر فقد استوجب العفو لحسن ظنه بك، قال بعض الحكماء: تجاوز عن مذنب لم يسلك بالإقرار طريقا حتى أخذ من رجائك رقيقا.
- وإن قال فعلت ولا أعود فهذه هى التوبة، وحق الإنسان أن يقتدى

بِاللَّهِ تَعَالَى فِي قَبُولِهَا ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾<sup>(١)</sup>، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولذة العفو أطيب من لذة التشفي لأن الأولى يلحقها حمد العاقبة ،  
ولذة العقوبة يلحقها ذم الندم.

ثم بيّن الشافعي الميزان العدل الذي يوزن به الناس ، فيقول :

زن من وزنك بما وز نك وما وزنك به فزنه  
من جا إليك فرح إليه ومن جفاك فصد عنه

فالحكمة مطلوبة في التعامل مع الناس وكرامة الإنسان الذي كرمه الله  
أولى من الوداد مع المذلة فالوداد إن لم يكن متبادلا فلا حاجة للمرء إليه :

ومن الشقاوة أن تحب ومن تحب يحب غيرك  
أو أن تريد الخير للإنسان وهو يريد ضيرك !!

ويقول في نفس المعنى الكريم :

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفا فدهه ولا تُكثر عليه التأسفا  
ففي الناس أبدال وفي الترك راحة وفي القلب صبر للحبيب ولو جفا  
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير في خل يجيء تكلفا  
ولا خير في خل يخون خليله ويلقاه من بعد المودة بالجفا

فالصداقة كنز نادر ثمين ولكثرة نفع الصديق قال حكيم عنه : هو أنت  
بالنفس إلا إنه غيرك بالشخص.

(١) سورة النور الآية ٢٢ .

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠ .

ومن وجد إخوانا ذوى ثقة وَجَدَ بهم عيوننا وآذاننا وقلوبنا كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد.

لكنَّ اختيار من تركز إليه لتصادقه أمر صعب إذ قد يتشيع لك الناقص فتظنه فاضلا فيكون: كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم!!  
وحق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار، فإن الحكماء يقولون: «من صحب خيرا أصابته بركته فجليس أولياء الله لا يشقى ولو كان كلبا ككلب أهل الكهف فإن الله تعالى ذكره فى كتابه العزيز فقال: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾<sup>(١)</sup>. ولذا أوصى العلماء والحكماء بالبعد عن مصاحبة ومجالسة السفهاء، قال الإمام على رضى الله عنه: «لا تصحب الفاجر فيزين لك فعله ويود لو أنك مثله» وقد قيل: «جالسوا من تُذكركم بالله رؤيته ويزيد فى خيركم نطقه» وقال عليه السلام: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». [رواه الترمذى].

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى<sup>(٢)</sup>  
فإذا تحرى الإنسان أصول اختيار الصديق ثم وجده على عكس مراده ولم يجد منه الألفة والمودة والأمانة والثقة وحسن العشرة فليكن ذا مروءة وكرامة وعزة ولينصرف عنه وليقل كما قال الشافعى:

سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها صديقٌ صدوقٌ صادقُ الوعدِ منصفًا

(١) سورة الكهف الآية ١٨.

(٢) البيت لطرفة بن العبد «انظر الملاحظات السبع».

## قلّة الإخوان

ولما أتيت الناس أطلبُ عندهم      وأخا ثقة عند ابتلاء الشدائدِ  
تقلبت في دهري رخاءً وشدّةً      وناديت في الأحياء هل من مساعدِ  
فلم أر فيما ساءنى غير شامتٍ      ولم أر فيما سرنى غير حاسدِ

\* \* \*

إنى صحبت الناسَ ما لهم عدوٌ      وكننتُ أحسب أنى قد ملأت يدي  
لما بلوتُ أخلائى وجدتهمُ      كالدهر في الغدر لم يُبقوا على أحدِ  
إن غبت عنهم فشر الناس يشتمنى      وإن مرضت فخير الناس لم يعد  
وإن رأونى بخير ساءهم فرحى      وإن رأونى بشر ساءهم نكدى

\* \* \*

كن ساكنا فى ذا الزمان بسيره      وعن الورى كن راهبا فى ديره  
واغسل يديك من الزمان وأهله      واحذر مودتهم تغل من خيره  
إنى اطلعت فلم أجد لى صاحبا      أصحبه فى الدهر ولا فى غيره  
فتركت أسفلهم لكثرة شره      وتركت أعلاهم لقلّة خيره

\* \* \*

صديقٌ ليس ينفخ يوم بؤس      قريب من عدو فى القياس  
وما يبقى الصديق بكل عصر      ولا الإخوان إلا للتآسى  
عمرتُ الدهر ملتصبا بجهدى      أخا ثقة فألهانى التماسى

تنكرت البلاد ومن عليها كأن أناسها ليسوا بناسي

\*\*\*

لم يبق في الناس إلا المكر والملق<sup>(١)</sup> شوك، إذا لمسوا، زهر إذا رمقوا<sup>(٢)</sup>  
فإن دعتك ضرورات لعشرتهم فكن جحيما لعل الشوك يحترق

\*\*\*

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا  
ونهبو ذا الزمان بغير ذنب ولو نطق الزمان لنا هجانا  
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضا عيانا

### شرح الأبيات

حال الناس في كل زمان لا يسر الصديق ولا يرضى العدو، وهذا ما خبره الشافعي بعد طول تجربة وسفر وترحال بين البلاد وأهلها.

أبى الناس إلا ذميم الفعال إذا جربوا وقبيح الكذب

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال عليه السلام: «المكر والخديعة والخيانة في النار»<sup>(٤)</sup>.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه:

(١) المكر والملق: الخداع.

(٢) رمقوا: نظروا إلى الشيء، والرمق بقية الروح.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٠٢.

(٤) ذكره أبو داود في المراسيل.

البغى والنكث والمكر» يقول سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١).  
 وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر، وضافت عليه من موارد  
 الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق قرى فهو على فكه غير  
 قادر، وأوقعه فى خطة نفس وورطة حتف فما له من قوة ولا ناصر! !  
 وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء وضعف قدره  
 عن احتمال المكاره فى جنب نيل المكارم.

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا إليه، وبئس الشيمة الغدر بالعهـد  
 ولما حلف محمد الأمين للمأمون فى بيت الله الحرام- وهما وليا  
 عهد - طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذنى الله إن خذلتـه،  
 فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لى الأمين فى ذلك  
 الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد فى نفسى أن أمرى  
 لا يتم فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟

قال: لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره.  
 وحال الناس - كما قال الشافعى - يدل على قلة الأصدقاء وندرتهم  
 وذلك لكثرة الغش فى البرية، ومن غش المحبة والصدقة كان أسوأ حالا  
 ممن غش الدرهم والدينار فإن الحكيم ذكر أن المحبة المغشوشة تنحل  
 سريعا وتفسد وشيكا كما أن الدرهم والدينار إذا كانا مغشوشين ففسدا سريعا.  
 فالسعيد من اكتسب الأصدقاء واجتهد فى بذل الخيرات لهم ليكتسب  
 بهم مالا يقدر أن يكتسبه لذاته فيلتذ بهم ويلتذون به أيام حياته.

(١) سورة فاطر الآية ٤٣.

فلما قلَّ الوفاء وكثر الغدر وانتشرت الخيانة كان طيب العيش في العزلة - كما يقول الشافعي ويوافقه ابن الجوزي فيقول في كتابه الفريد: صيد الخاطر: «العزلة عن الخلق سبب طيب العيش، ولا بد من مخالطة بمقدار، فدارِ العدو واستحله فربما كادك فأهلكك، وأحسن إلى من أساء إليك واستعن على أمورك بالكتمان، وليكن الناسُ عندك معارف؛ فأما أصدقاء فلا.. لأن أعز الأشياء وجود صديق.. فإن صادفته عامياً لم تنتفع به لسوء أخلاقه، وقلة علمه وأدبه، وإن صادفت مائلاً أو مقارباً حسدك ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾<sup>(١)</sup>».

فإن أردت العيش فابعد عن الحسود لأنه يرى نعمتك فربما أصابها بالعين. فإن اضطررت إلى مخالطته فلا تُفش له سرّك ولا تشاوره ولا يعرّنك تملقه لك ولا ما يظهره من الدين والتعبد فإن الحسد يغلب الدين.. وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد إلى القتل! وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نُزع الحسد والغل من صدورهم، ولولا أنه نُزع لتحاسدوا ولتنغص عيشهم.

### دعوة المظلوم

وَرُبَّ ظَلُومٍ<sup>(٢)</sup> قَدْ كَفَيْتُ بَحْرِيهِ فَأَوْقَعَهُ الْمَقْدُورُ أَى وَقُوعِ  
فَمَا كَانَ لَى الْإِسْلَامُ إِلَّا تَعْبُدَا وَأَدْعِيَةَ لَا تَتَّقَى بَدْرُوعِ

(١) سورة محمد الآية ٣٠.

(٢) ظلوم: ظالم وظلوم بمعنى واحد إلا أن الثانية صيغة مبالغة تفيد الكثرة في الظلم.

وحسبك أن ينجو الظلوم وخلفه سهامٌ دعاءٍ مِن قيسى<sup>(١)</sup> رُكوع  
مُريشة بالهدب<sup>(٢)</sup> من كل ساهرٍ منهلةً أطرافها بدموعٍ

### شرح الأبيات

يحذر الشافعي من الظلم فالظلم كما جاء في الحديث: «ظلمات يوم القيامة»، فالمظلوم - وإن كان ضعيفا - إلا أن يد القدرة الإلهية معه تربت على كتفه، ورب العرش يسمع صوته من فوق سبع سماوات، فلن ينجو ظلوم خلفه سهام دعاء (وهذه الجملة استعارة تفيد تشبيه دعوات المظلوم لشدة وقعها بالسهم الحادة التي تعرف هدفها)، كذا دعوات الراكع الساجد وهو مظلوم تصعد إلى السماء والدعوات المريشة بالأهداب ترفع الشكوى من الظالم الغشوم.

والإنسان العادل: يستعمل العدالة في ذاته وفي غيره، كما أن الإنسان الجائر يستعمل الجور في ذاته وفي غيره، وليست العدالة جزءا من الفضيلة؛ بل هي الفضيلة نفسها، ولا الجور جزءا من الرذيلة؛ بل هو الرذيلة نفسها.

وبعض أنواع الظلم أو الجور ظاهر ينفعل بالإرادة مثلما يكون في البيع والشراء والكفالات والقروض والعواري (جمع عارية وهي الشيء المعار)، وبعضها خفي ينفعل بالإرادة أيضا مثل السرقة والفجور والقيادة وخداع المالك وشهادة الزور.

(١) القيسى: جمع القوس والقوس آلة على هيئة هلال ترمى بها السهام.

(٢) مُريشة بالهدب: كناية عن لصق شعر الأهداب فيها، كما يُلصق الريش على مؤخرة السهم ليزيده سرعة، والمعنى: اتق دعوة المظلوم فإنها أشد نفاذا من السهام المريشة. وإن كان ريشها هدب العيون ومددما دموع عين المظلوم.

وبعضها غشى على سبيل التغلب مثل التعذيب بالآلات والقيود والأغلال، يقول ابن الجوزى: «مازلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب أنهم يشربون الخمر ويفسقون ويظلمون ويفعلون أشياء توجب الحدود، فبقيت أتفكر أقول: متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حدا؟ فلو ثبت فمن يقيمه؟ وأستبعد هذا في العادة لأنهم فى مقام احترام الناس، لأجل مناصبهم،.. حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجائب، فقبول ظلمهم بأخذ أموالهم، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل والقيود الثقيل والذل العظيم... وفيهم من قُتل بعد ملاقة كل شدة، فعلمت أنه لا يهمل شيئا.. فالحذر الحذر؛ فإن العقوبة آتية.. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾<sup>(١)</sup>.

والمعين للظالم ظالم مثله... طال تعجبي من مؤمن بالله عز وجل مؤمن بجزائه يؤثر خدمة السلطان مع ما يرى منه من الجور الظاهر.. فواعجبا ما الذى يعجبه؟! إن كان الذى يعجبه دنيويا فليس ثم إلا أن يصاح بين يديه بسم الله، وأن يتصدر فى المجالس ويلوى عنقه كبيرا على النظراء... ثم يقابل هذا بأن يصادر ويعزل... فتستخرج منه تلك المرارة من كل حلاوة كانت فى الولاية، وربما كان رقيق الحال (ليس غنيا) فافتقر بالصادرة جدا، ثم تنطلق الألسن المادحة بالذم، ثم لو سلم من هذا لم يسلم من الرقيب له والحذر منه، فهو كراكب البحر؛ إن سلم بدنه من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف، وإن كان دينا فإنه يعلم أنهم لا يمكنونه - فى الغالب - من العمل بمقتضى الدين لأنهم يأمرونه بترك ما يجب وفعل ما لا يجوز، فيذهب دينه على البارء.

(١) سورة الفجر الآية ١٤.

## السماحة وحُسنُ الخلق

إذا سبى نذل تزايدت رفعةً      وما العيب إلا أن أكون مسابيه  
ولو لم تكن نفسي علىّ عزيزةً      لكننتها من كل نذل تحاربه  
ولو أننى أسعى لنفسي وجدتنى      كثير التوانى للذى أنا طالبه  
ولكننى أسعى لأنفع صاحبي      وعارٌ على الشبعان إن جاع صاحبه

\*\*\*

يخاطبني السفيه بكل قبح      فأكره أن أكون له مجيبا  
يزيد سفاهةً فأزيد حِلماً      كعود زاده الإحراق طيبا

\*\*\*

إذا نطق السفيه فلا تجبهُ      فخيرٌ من إجابته السكوتُ  
فإن كلمته فرّجت عنه      وإن خليته كمدا يموت

\*\*\*

لما عفوت ولما أحقد على أحد      أرحت نفسي من همّ العداوات  
إنى أحيى عدوى عند رؤيته      لأدفع الشر عنى بالتحيات  
وأظهر البشر للإنسان أبغضه      كما إن قد حشا قلبى محبات  
الناس داءً وداء الناس قربهم      وفى اعتزالهم قطع المودات

\*\*\*

## شرح الأبيات

قال تعالى: ﴿وَالْكٰظِمِيْنَ الْغَيْظِ وَالْعَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ﴾<sup>(١)</sup>.

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.

وقال الحسن بن أبى الحسن: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم فلا يقيم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال على رضى الله عنه: «أولى الناس بالعتو أقدرهم على العقوبة». وقال أيضا: «إن أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل».

وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفى يلحقها ذم الندم».

وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والتحمل والحلم وكان يقول: ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقى عرفت له فضله، وإن كان مثلى تفضلت عليه، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه.. وبذلك ساد عشيرته.

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠.

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلة ستر.  
وقيل: من انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه فلم يجب شكره ولم يحمده  
في العالمين ذكره. والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام.

إذا كنت مختصا لنفسك صاحباً فمن قبل أن تلقاه بالود أغضبه  
فإن كان في حال القطيعة منصفاً وإلا فقد جربته فتجنبه  
وقال آخر:

وجهل رددناه بفضل حلومنا ولو أننا شئنا رددناه بالجهل  
وكان رسول الله ﷺ القدوة المثلى في الحلم..

كان ﷺ يقسم الغنائم يوم حنين فجاءه أعرابي فقال: يا نبي الله  
اعدل، فقال له النبي ﷺ: ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟! فقد خبت  
وخسرت إذا لم أعدل، فقال عمر: يا رسول الله ألا أضرب عنقه فإنه  
منافق؟ فقال النبي الكريم الحليم: معاذ الله أن يتحدث الناس أني  
أقتل أصحابي!!

إنه رسول الله.. لا يقابل السيئة بالسيئة ولكنه يعفو ويصفح.. لقد أدبه  
ربه فأحسن تأديبه.. كان قرآنا يمشى على الأرض وكان خلقه القرآن.  
ما أكثر الأندال السفهاء الذين يقابلهم الإنسان في حياته فلو أنه  
قابلهم بسفه يردُّ به سفاهتهم لتكدرت حياته وأظلمت معيشته وتدخل  
الشیطان بينه وبينهم، ولكن في الحلم راحة قلبه حيث يقيض الله له  
ملكا يرد عنه، وهل يستطيع إنسان أن يرد كما يرد الملك؟!  
ويقول الشافعي مؤكداً حسن خلقه مع أصحابه:

ولكننى أسعى لأتفع صاحبى وعارٌ على الشعبان إن جاع صاحبه

كان الإيثار من أخلاقه التى يعيش بها بين الناس، وصاحب الخلق الحسن محبوب من الله ورسوله ﷺ، يقول ﷺ: «ألا أدلكم على أقربكم منى مجلسا يوم القيامة؟ أحسنكم أخلاقا، الموطنون أكنافا، الذين يألّفون ويؤلّفون» [رواه الطبرانى والبيزان].

يعلم الشافعى أن الدنيا مزرعة للآخرة فمن زرع خيرا حصد سلامة، ومن زرع شرا حصد ندامة ولكن لا تنفع ساعة ندامة.

المؤمن يعلم أن عمره يسير به سير السفينة بركابها، فهو فى الحقيقة مسافر، أول منازل رحلته فى دنيا المهدي، وآخر محطة الوصول هى اللحد، ووطنه بعد الرحلة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(١)</sup>. وقال قائل: أفضل الناس من عاش الناس فى فضله.

وباع طلحة بن عثمان رضى الله تعالى عنه أرضا بسبعمائة ألف درهم فلما جاءه المال قال: إن رجلا يببب هذا عنده لا يدرى ما يطرقه الغرير<sup>(٢)</sup> بالله تعالى ثم قسمه فى المسلمين.

وقد قال رسول الله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى» [أخرجه البخارى].

من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال إلى الأصدقاء؛ فإن أشد الأعداء وأكثرهم أذى الصديق المنقلب عدوا؛ لأنه قد اطلع على خفي السر، قال الشاعر الحكيم:

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٣.

(٢) غُرُّ الرجل: غرة، جمل الأمور وغفل عنها فهو غُرٌّ، والغرير: الشاب لا تجربة له، الجمع: أغرّة، وأغرّاء.

احذر عدوك مرةً واحذر صديقك ألف مرة  
فلربما انقلب الصديق - ق فكان أعلم بالضررة

فإن قلت: كيف يبقى الإنسان بلا صديق؟ قلتُ لك: أترك ما تعلم أن المجانس يحسد، وأن من رآك ويعتقدك مثلاً له - وقد ارتقيت عليه - فلا بد أن يتأثر وربما حسد، فإن إخوة يوسف - عليه السلام - من هذا الجنس جرى لهم ما شأنهم.

فانقع من الأصدقاء بالقليل ثم لا تلقه إلا متدرعا درع الحذر، ولا تطلع على باطن يمكن أن يُستر عنه، وكن كمن قال عن الذئب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعدى فهو يقظان هاجع

وإذا عاملت الأذكياء فاحذر غاية الحذر، وأقوى ما ينبغي أن يكون الاحتراز من موتور؛ فإنك إذا آذيت شخصاً فقد غرست في قلبه العداوة، فإذا خاطبك السفه بالقبح خاطبه بزين القول ولين الكلام حتى لا تتخذة عدواً، فمن التغفل أن تعاقب شخصاً أو تسيء إليه إساءة عظيمة، وتعلم أن مثل ذلك يجدد الحقد في قلبه، فربما عمل لك المحن ونصب لك المكائد كما جرى لقصير مع الزباء وأخبارهما معروفة.

وإياك أن تساكن من آذيتك، وإن كان ولا بد فمن بعيد، فما تؤمن الأحقاد. ومتى رأيت عدوك - فيه غفلة - فأحسن إليه فإنه ينسى عداوتك ولا يظن أنك قد أضمرت له جزاء على قبح فعله، فحينئذ تقدر على بلوغ كل غرض منه.

ومن الخور إظهار العداوة للعدو.. ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن كسر شوكتهم... ولو لم يمكن ذاك كان التلطف سبباً في

كف أكفهم عن الأذى.. وفيهم من يستحى لحسن فعلك فيتغير قلبه لك.  
 ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.  
 وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن رجلا قد شتمهم أهدوا إليه  
 وأعطوه فهم بالعاجل يكفون شره، ويحتالون فى تقليب قلبه، ويقع  
 بذلك لهم مهلة لتدبير الحيل عليه إن أرادوا.

إذا نطق السفية فلا تجبه فخير من إجابته السكوت

وقد قال عليه السلام: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»  
 [أخرجه البخارى].

وقال الشافعى فى كتابه (الأم): «إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر  
 فى كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر».  
 وعن أبى موسى الأشعري قال: قلت يا رسول الله: أي المسلمين  
 أفضل؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده» [أخرجه البخارى].  
 وقال الشافعى:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغك إنه ثعبان  
 كم فى المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال علي بن هشام - رحمة الله عليه:

لعمرك إن الحلم زين لأهله وما الحلم إلا عادة وتحلم  
 إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة وعي فإن الصمت أولى وأسلم

(١) سورة فصلت الآية ٣٤.

وقيل لرجل: بما سادكم الأحنف فوالله ما كان بأكبركم سنا ولا بأكثركم مالا؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه.

وقال أبو الأسود الدؤلى:

وإني لينهاني عن الجهل والخنا      وعن شتم أقوام خلأئقُ أربعُ  
حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وإننى      كريمٌ ومثلى مَنْ يُضر ويَنفع  
فشتان ما بينى وبينك إننى      على كل حال أستقيم وتضلع

«فمتى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح فلا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصرا ولا أن تؤاخذ به؛ فإن حاله حال السكران لا يدري بما يجرى.. بل اصبر لفورته ولا تُعول عليها فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر. ومتى أخذت فى نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنونا، أو كمفيق عاتب مغميا عليه، فالذنب لك.

بل انظر بعين الرحمة، وتلمح تصريف القدر له، وتفرح فى لعب الطبع به، واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى وعرف لك فضل الصبر. ومتى قوبل على حالته ومقالته صارت العداوة متمكنة، وجازى فى الإفاقة على ما فعل فى حقه وقت السكر. وأكثر الناس على غير هذه الطريق، متى رأوا غضبان قابلوه بما يقول ويعمل، وهذا على غير مقتضى الحكمة؛ بل الحكمة ما ذكرته، وما يعقلها إلا العالمون<sup>(١)</sup>.

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزى ص ٢٤١ مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

## الجُود والكرم

يا لهف<sup>(١)</sup> نفسى على مالٍ أفرقه      على المقلين<sup>(٢)</sup> من أهل المروءاتِ  
 إن اعتذارى إلى من جاء يسألنى      ما ليس عندى لمن إحدى المصيباتِ

\* \* \*

إذا لم تجودوا والأمور بكم تمضى      وقد ملكت أيديكم البسط<sup>(٣)</sup> والقبضا  
 فماذا يُرجى<sup>(٤)</sup> منكم إن عزلتم<sup>(٥)</sup>      وعضتكم<sup>(٦)</sup> الدنيا بأنيابها عضا  
 وتسترجع الأيام ما وهبتكم<sup>(٧)</sup>      ومن عادة الأيام أن تسترجع القرضا<sup>(٨)</sup>

\* \* \*

أجود<sup>(٩)</sup> بموجود<sup>(١٠)</sup> ولو بتُّ طاويا<sup>(١١)</sup>      على الجوع كشحا<sup>(١٢)</sup> والحشا<sup>(١٣)</sup> يتالم<sup>(١٤)</sup>

(١) يا لهف: يا حسرة نفسى والفعل لهف، والتلهف على الشئ التحسر والحزن عليه.

(٢) المقلين: قليلو المال.

(٣) البسط: المد، مد يد العون للآخرين، أو المساعدة، والقبض عكسها.

(٤) يرجى: يُنتظر.

(٥) عزلتم: عزله أفرده، يقال: أنا عن هذا الأمر بمعزل.

(٦) عضتكم: جاءتكم الكوارث والمصائب.

(٧) وهبتكم: أعطتكم.

(٨) القرض: العطايا.

(٩) أجود: أكرم.

(١٠) موجود: ما عندى.

(١١) طاويا: جائعا.

(١٢) كشح: البخيل.

(١٣) الحشا: المعدة والأمعاء.

(١٤) يتالم: يتوجع.

وأظهر أسباب الغنى بين رفقتي<sup>(١)</sup> ليخفاهم<sup>(٢)</sup> حالي وإنسى لُعدَم<sup>(٣)</sup>  
وبينى وبين الله أشكو فافتى<sup>(٤)</sup> حقيقا<sup>(٥)</sup> فإن الله بالحال أعلم<sup>(٦)</sup>

### شرح الأبيات

تدور الأبيات حول معنى الجود والكرم، والجود بذل المال، وأنفعه  
ما صُرف في أوجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى:  
﴿لَنْ نَسْأَلَكَ الْفَرِحَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا مَحَبُوبٌ﴾<sup>(٧)</sup>. واليه ذهب الشافعي في أول  
ديوانه:

وإن كثرت عيوبك في البرايا      وسرك أن يكون لها غطاءً  
تستتر بالسخاء فكل عيب      يغطيه كما قيل السخاءُ

وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء.

ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود.

ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار.

وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطى بخيلاً إذا صعب عليه

البذل، والممسك سخياً إذا كان لا يستصعب العطاء.

(١) رفقتي: أصحابي.

(٢) ليخفاهم: خفى عنهم، لم يعرفوا.

(٣) معدم: فقير ليس عندي شيئاً.

(٤) فافتى: فقرى وقلة ما عندي.

(٥) حقيقا: حقاً.

(٦) أعلم: عليم.

(٧) سورة آل عمران الآية ٩٢.

ومن أشهر الناس في الكرم رسول الله ﷺ؛ بل ومن أعظمهم سخاء وجوداً؛ كان يعطى السائل مهما سأل وإن كان لا يملك فكان ﷺ يقترض ليفي بحاجة السائل، وكان في شهر رمضان يعطى حتى يُشبهه بالريح المُرسلة، ومن عُرف بالسخاء في العرب حاتم الطائي فقد كان أجود العرب وربما بات طاويا وضيغه شعبان؛ بل ربما ذبح فرسه إن لم يجد غيرها يقدمها لضيغه!

ومن بعده عُرف معن بن زائدة بالكرم العظيم، ومما قيل فيه وفي جوده:

يقولون معن لا زكاة لماله	وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجد في دياره	من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جنّته متهللاً	كأنك تعطيه الذي أنت نائله
تعود بسط الكف حتى لو أنه	أراد انقباضاً لم تطعه أنامله
فلو لم يكن في كفه غير نفسه	لجاد بها فليثق الله سائله

وقال بعض العرب لولده: يا بني لا تزهدن في المعروف، فإن الدهر ذو صروف، فكم راغب كان مرغوباً إليه وكم طالب كان مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعد من الرحمن فضلا ونعمة	عليك إذا ما جاء للخير طالب
ولا تمنعن إذا حاجة جاء راغباً	فإنك لا تدري متى أنت راغب

وقال آخر:

أيقنت أن من السماح شجاعة	وعلمت أن من السماح جوداً
--------------------------	--------------------------

والجود خمسة أ ضرب :

- ١- جود الإله تعالى : وهو البذل لكل أحد على قدر استحقاقه.
  - ٢- جود الملوك : وهو بسط المال على العفاة غنيهم وفقيرهم : (والعفاة : طلاب المعروف والواحد عاف).
  - ٣- جود السوقة : الذين هم دون الملوك وهو بذل المال للسؤال.
  - ٤- جود الصعاليك : وهو البذل للندامى والمعاشرين.
  - ٥- جود عوام الناس : وهو الإحسان إلى الأقارب.
- والمحمود من ذلك كله الجود الإلهى ؛ وهو بذل الموجود بقدر الطاقة لكل محتاج بقدر استحقاقه من غير امتنان ولا تأذى ؛ فالمعطى ما يحتاج إليه لمن لا يحتاج مسرف مضيع ، والمعطى غيره شيئاً لرهبة واقٍ نفسه ، والمعطى لرغبة فى مثوبة أو لمحمدة دنيوية تاجر.

فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور

وقال آخر :

وتاجر البر لا يزال له ربحان فى كل متجر تجره  
أجر وحمد وإنما طلب الأجر ولكن كلاهما اعتوره  
وقد أجاد بشار فى قوله :

ليس يعطيك للرجاء أو الخوف ولكن يلذ طعم العطاء

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : خطب رسول الله ﷺ

فقال: «إياكم والشح؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» [رواه أبو داود في سننه وإسناده صحيح].

والشح في اللغة: غريزة وجبلة في الإنسان تحمله على البخل والحرص والطمع والحقد والحسد والقطيعة والفجور، بدليل ما جاء في القرآن الكريم، ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>، ومفهوم هذا الشرط أنه من لم يتق شح نفسه فهو من الخاسرين.

ومن هنا نفهم أن الشح أوسع دائرة من البخل، فالبخل هو منع الحقوق الشرعية أو التي تقتضيها المروءة، والشح مركب من مجموعة آفات، كل آفة أكبر من أختها.

والحرص أخو البخل، ونقصد به الحرص على ما في اليد من مال ونحوه مما يستمتع المرء به وينتفع بوجوده ولا يصبر على بعده عنه ولا يسره فراقه بحال، وربما أدى الحرص بصاحبه إلى تقديس ما يحرص عليه حتى يكون منه بمنزلة السمع والبصر فيجعله مبلغ همه ومنتهى أمله فيصير عبدا له، وينسى معه الوظيفة التي خلقه الله من أجلها.. وربما دفع به حرصه إلى الفجور وهو ارتكاب ما لا يحل شرعا من أجل البقاء على ما في يديه والطمع في زيادته وتنميته بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة، فهو عبداً لما ملك وعبداً لما يطمع في تملكه، وهذا هو الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

(١) سورة التغابن الآية ١٦.

وقال عليه السلام: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم وعبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»<sup>(١)</sup> [رواه البخارى].

فإذا اجتمع البخل والحرص والطمع فهو الشح<sup>(٢)</sup>.

ولا ينكر أن الطباع تحب المال لأنه سبب بقاء الأبدان؛ لكنه يزيد حبه فى بعض القلوب حتى يصير محبوبا لذاته لا للتوصل به إلى المقاصد.

فترى البخيل يحمل نفسه على العجائب ويمنعها اللذات، وتصير لذاته فى جمع المال، وهذه جبلة فى خلق كثير.

وليس العجب أن تكون فى الجهال وينبغى أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته خصوصا فى الأفعال اللازمة للمال.

أما أن يكون العالم جامعاً للمال من وجوه قبيحة ومن شبهات قوية ويحرص شديد، وبذل فى الطلب ثم يأخذ من الزكوات - ولا تحل له مع الغنى - ثم يدخره ولا ينفع به فهذه بهيمية تخرج من صفات الآدمية.

فالويل لهؤلاء.. ما أقل ما يتمتعون بظواهر الدنيا، وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم لأن الحق عز وجل لا يُميل بالقلوب إلا إلى المخلصين، فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة وما حَصَلُوا إلا صورة الحطام!

(١) الخميصة: ثوب نفيس له أعلام.

إذا شيك: أى إذا أصابته شوكة لا يجد من ينقشها له أى ينتفها له.

(٢) وصايا الرسول: د/ محمد بكر إسماعيل ط/ ٢٢٥ وما بعدها - دار المنار - القاهرة.

## زينة الإنسان

على ثياب لو يُباع جميعها      بفلس لكان الفلّس منهن أكثرًا  
 وفيهن نفسٌ لو تقاس ببعضها      نفوسُ الورى كانت أجلّ وأكبرًا  
 وما ضر نصلَ السيفِ إخالق غمده      إذا كان عضبا أين وجهته فرى

\* \* \*

صن النفس واحملها على ما يزينها      تعش سالما والقولُ فيك جميل  
 ولا تولين الناسَ إلا تجملا      نَبَا بك دهرٌ أو جفاك خليل  
 وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد      عسى نكبات الدهر عنك تزول  
 ولا خير في ودّ امرئٍ متلونٍ      إذا الريح مالت، مال حيث تميل  
 وما أكثرَ الإخوانَ حين تعدهم      ولكنهم في النائبات قليل

\* \* \*

عَفُوا تعف نساؤكم في المحرم      وتجنبوا مالا يليق بمسلم  
 إن الزنا دَيْنٌ فإن أقرضته      كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

\* \* \*

يا هاتكا حُرْمَ الرجال وقاطعا      سُبُل المودة عشت غير مُكْرَم  
 لو كنت حرا من سلاله ماجدٍ      ما كنت هتاكاً لحرمة مسلم  
 من يَزِن يَزِن به ولو بجداره      إن كنت يا هذا لبيبا فافهم

\* \* \*

قنعتُ بالقوت من زمانى	وَصُنْتُ نَفْسِي عَنِ الْهَوَانِ
خوفا من الناس أن يقولوا	فَضَلَ فُلَانٌ عَلَيَّ فُلَانٌ
من كنت عن ماله غنيا	فَلَا أَبَالِي إِذَا جَفَانِي
ومن رآنى بعينِ نقصٍ	رَأَيْتَهُ بِأَلْتَى رَأْنِي
ومن رآنى بعينِ تمٍّ	رَأَيْتَهُ كَامِلَ الْمَعَانِي

\* \* \*

إذا رمت أن تحيا سليما من الردى	وَدِينِكَ مَوْفُورٍ وَعَرْضُكَ صَيَّنَ
فلا ينطقن منك اللسانُ بسوأة	فَكَانَتْ سِوَاءَاتٍ وَلِلنَّاسِ أَلْسِنُ
وعينك إن أبدت إليك معائبا	فَدَعَهَا، وَقَلَّ يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ
وعاشر بمعروفٍ وسامح من اعتدى	وَدَافِعٍ وَلَكِنْ بِأَلْتَى هِيَ أَحْسَنُ

\* \* \*

إن لله عبادا فطنا	تَرَكَوْا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نظروا فيها فلما علموا	أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحْيٍ وَطِنَا
جعلوها لجة واتخذوا	صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُنُنَا
أمت مطامع فأرحت نفسي	فَإِنَّ النَّفْسَ مَا طَمَعَتْ تَهُونُ
وأحييت القنوع وكان ميتا	فَفِي إِحْيَائِهِ عَرْضٌ مَصُونُ
إذا طمع يحل بقلب عبدٍ	عَلْتَهُ مَهَانَةٌ وَعِلَاهُ هَوْنُ

### شرح الأبيات

يحاول الشافعي في ديوانه إصلاح قوى النفس بإصلاح الفكرة بالتعلم حتى يميز بين الحق والباطل وبين الصدق والكذب في المقال، وبين

القبیح والجميل فى الفعال، وإصلاح الشهوات بالعفة حتى تسلس للجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة، وإصلاح الحمية: بإسلاها حتى يحصل الجلم وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب، وتحصل الشجاعة وهى كف النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين.

وبإصلاح القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والإحسان وهذه جماع الكارم، وطهارة النفس وحسن الخلق المدوح؛ يقول النبى ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً وأطفهم بأهله» [رواه الترمذى والنسائى والحاكم].

وبهذا تكون قيمة النفس الإنسانية بما يزينها من أخلاق بعد الإيمان، وكل متعاطٍ لفعل من الأفعال النفسية فإنه يتقوى فيه بالازدياد منه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فباحتمال صغار الأمور يمكن احتمال كبارها، وباحتمال كبارها يستحق الحمد والثناء كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه: «الإيمان يبدو كنكتة بيضاء فى القلب كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، وإذا استكمل العبد الإيمان ابيض قلبه كله، وإن النفاق يبدو لمظة<sup>(١)</sup> سوداء، وكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله».

والإنسان يكمل فى الفضيلة بأربع درجات: اثنتين فى الاعتقاد وهما: أن يعتقد الجميل ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة وأدلة قاطعة؛ لا عن شبهات وإقناعات متداعية.

واثنتين فى الفعل وهما: أن يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث

---

(١) لمظة: نكتة فى القلب.

يبغضها فيجتنب الرذيلة ويتوصل إلى الفضيلة، وأن يتعود العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها كما قال ﷺ: «وجُعِلت قرّة عيني في الصلاة» رواه أحمد والنسائي والحاكم.

وغاية الفاضل في الفضيلة أن تقع منه الفضائل أبدا من غير فكر ولا روية؛ لغلبة قواها عليه، وبعدها ما ينافيها منه كالصانع الحاذق في صنعته، ومن أهم الفضائل التي دعا إليها الشافعي في هذه الأبيات الصبر على الفقر والتجمل أمام الناس، يقول الشاعر:

والصبر بالأرواح يعرف فضله صبر الملوك وليس بالأجسام

وذلك صبر نفسي وبه تتعلق الفضيلة، والصبر نوعان: صبر عن تناول مشتهى، ويقال له العفة وإليه أشار الشافعي فقال:

صن النفس وأحملها على ما يزينها تعش سالما والقول فيك جميلٌ

وصبر على تحمل مكروه أو محبوب وتختلف أسماؤه باختلاف مواقعه فإن كان - مثلا - في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهدا وضده الشره والحرص، وإن كان في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر وضده ضيق الصدر والضجر والتبرم... ويكون الصبر عاما كما في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾<sup>(١)</sup> فذكر عز وجل أنهم يصبرون في البأساء أي في الفقر، والضراء أي في المصيبة، وحين البأس أي في المحاربة.

واعلم أن للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل، فلا بد للمبتلى

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧.

من الصبر إلى أن ينقضى أوان البلاء، فإن تقلقل قبل الوقت لم ينفع التقلقل، كما أن المادة إذا انحدرت إلى عضو فإنها لا ترجع، فلا بد من الصبر إلى حين البطالة، فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لا ينفع. فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعاً، ولا ينفع إلا به، إلا إنه ينبغي للداعي ألا يستعجل؛ بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم. وليس في الوجود شيء أصعب من الصبر، إما عن المحبوب وإما على المكروهات. وخصوصاً إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج، وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به السفر... فالجزع لا ينفع صاحبه؛ بل يفضحه، فليس في طريق الصبر نفقة سواه، فينبغي للصابر أن يشغل نفسه بالدعاء والتفكير، ويقطع بهما ساعات ابتلائه.

وسبحان المتصرف في خلقه بالإذلال والابتلاء ليبلو صبرهم ويظهر جواهرهم بالابتلاء ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذُورٌ لِّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلَوْا اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (١).

هذا آدم - عليه السلام - تسجد له الملائكة ثم بعد قليل يخرج من الجنة.

وهذا نوح - عليه السلام - يُضرب حتى يُغشى عليه ثم بعد ذلك ينجو في السفينة ويهلك أعداؤه.

(١) سورة آل عمران الآيات ١٤٠ - ١٤٢.

وهذا الخليل إبراهيم - عليه السلام - يُلقى فى النار ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة.

وهذا الذبيح إسماعيل يضطجع مستسلما ثم يسلم ويبقى المدح.  
وهذا يعقوب - عليه السلام - يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول.  
وهذا الكليم - عليه السلام - يشتغل بالرعى ثم يرقى إلى التكليم.  
وهذا نبينا محمد ﷺ يقال له بالأمس اليتيم، ويتقلب فى عجائب يلاقيها من الأعداء تارة ومن مكائد الفقر أخرى، وهو أثبت من جبل حراء، ثم لما تم مراده من الفتح وبلغ الغرض من أكبر الملوك وأهل الأرض نزل به ضيف النقلة<sup>(١)</sup> فقال: واكرباه.

فمن تلمح بحر الدنيا، وعلم كيف تتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام لم يستهول نزول البلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء.  
ونجد الصبر فى معظم الأبيات السابقة إما ظاهرا وإما خفيا فهو فى الصبر على الفقر والفاقة وقلة الزاد:

وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد عسى نكبات الدهر عنك تزولُ

وهو فى الصبر عن الهوى والهوان وهما معا فى فعل الخنا والزنا:

عَفُوا تَعَفْ نَسَاؤُكُمْ فِى الْمَحْرَمِ وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ

وهو فى الصبر عن سؤال الناس والقناعة بالقوت القليل:

قَنَعْتَ بِالْقَوْتِ مِنْ زَمَانِي وَصَنَنْتَ نَفْسِي عَنِ الْهَوَانِ

وهو فى الصبر عن التحدث بما لا يليق والخوض فى عورات الناس:

(١) ضيف النقلة: ملك الموت.

فلا ينطقن منك اللسان بسوءة فكلك سوءات وللناس ألسنُ

ثم أخيرا هو فى الزهد فى الدنيا والتقلل من كل زائل :

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيى وطننا  
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

يقول ابن الجوزى فى حديث عن الصبر عن الهوى: «قرأت سورة يوسف - عليه السلام - فتعجبت من مدحه - عليه السلام - على صبره، وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيثة الأمر، فإذا هى مخالفة للهوى المكروه، فقلت: وأعجباه لو وافق هواه من كان يكون؟ ولما خالفه صار أمرا عظيما تضرب الأمثال بصبره ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك كان بصبر ساعة، فياله عزا وفخرا، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب.

فتلمحوا رحمكم الله عاقبة الصبر ونهاية الهوى.

فالعاقل من ميمز بين الأمرين: الحلوين والمرين، فإن من عدل ميزانه ولم تمل به كفة الهوى رأى كل الأرباح فى الصبر، وكل الخسران فى موافقة النفس، وكفى بهذا موعظة فى مخالفة الهوى لأهل النهى<sup>(١)</sup>، وللرغبة جمحات فكيف يكبح جماحها؟

فيقول الحكيم: ينبغى أن يشتغل بذكر الموت ويحذر من الهوى، ثم يُنظر فى عواقب الأمور فينبغى أن يُقدر الإنسان الآفات وإن رأى الدنيا مقبلة لجواز أن تنقطع به الدنيا، وينبغى كذلك للمعافى أن يُعد للمرض،

(١) صيد الخاطر: ص ٢٥٢، ٢٥٣ تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الكليات الأزهرية

- القاهرة. ط ١٩٧٩م.

وللقوي أن يتهياً للهرم، وبالجملة فإن النظر في العواقب وفيما يجوز أن يقع شأن العقلاء، أما النظر في الحالة الراهنة فحسب فحالة الجهلة الحمقى مثل أن يرى لذة عاجلة وينسى ما تجنى عواقبها.

كما ينبغي لعاشق الذنب أن يرى زوال اللذة وبقاء إثمها، فلو رأى اللص قطع يده لهان عنده المسروق، فمن رأى كذلك المعصية بعيني الشهوة فما رآها؛ إذ فيها من العيوب ما شئت، ثم ثمرتها عقوبة آجلة، وفضيحة عاجلة.

فكم من الأمور القبيحة التي تتعلق بالزنا والتي لا تفي لذة لحظة بمعشار عشرينها، منها هتك العرض بين الناس، وكشف العورات المحرمة، وخيانة المسلم للمسلم في زوجته إن كانت متزوجة، وفضيحة الزنى بها وهي كأخت له أو بنت، وأما سخط الحق سبحانه فمعلوم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾<sup>(١)</sup>.

وقال عليه السلام: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله تعالى من نطفة وضعها رجل في رحم لا تحل له» ومن له فهم فليعلم أن المراد من النطفة إيجاد الموحدين، ولولا تركيب الشهوة لم يقع الوطء، وإنما الشهوة تغطي عين الناظر ليحصل الولد أصلاً فهي عارض، فمن طلب الشهوة ونسى جنائته بالزنا فما رأى الأشياء على ما هي.

وقد نسى أكثر الخلق مآلهم ميلاً إلى عاجل لذاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل، فلقد باعوا بلذة يسيرة خيراً كثيراً، واستحقوا بشهوات مرذولة عذاباً عظيماً.. فإذا نزل بأحدهم الموت قال: ليتني لم أكن، ليتني كنت تراباً، فيقال له: الآن؟!

(١) سورة الإسراء الآية ٣٢.



وفى حديث آخر: «إياكم والغيبة؛ فإن الغيبة أشد من الزنا، إن الرجل قد يزنى ويشرب ثم يتوب ويتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه» [رواه ابن أبي الدنيا].  
وقال علي بن الحسين رضى الله عنهما: إياك والغيبة فإنها إدام<sup>(١)</sup> كلاب الناس.

ومعنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصا فى بدنه كالعمش والحوول والعمور والقرع، أم فى نسبه كقولك: أبوه نبطى أو هندى أو فاسق أو خبيث، أم فى خلقه كقولك: هو سيئ الخلق بخيل متكبر، أم فى ثوبه كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسخ الثياب، والدليل على ذلك أن النبى ﷺ سئل عن الغيبة، فقال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قال: «أرأيت إن كان فى أخى ما أقول يا رسول الله؟ قال: «إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» [رواه مسلم].

وكل ما يفهم منه مقصود الذم فهو داخل فى الغيبة سواء كان بكلام أم بغيره؛ كالغمز والإشارة، والكتابة بالقلم؛ فإن القلم أحد اللسانين. وهذا هو ما أشار إليه الشافعى بقوله:

وعيناك إن أبدت إليك معائبا فدعها، وقل يا عين للناس أعيُنُ  
والمستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلبه وإن قدر على القيام، أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك. وقد روى عن النبى ﷺ قوله: «من أذل عنده مؤمن وهو

(١) الإدام: الطعام يؤكل مع الخبز.

يقدر أن ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق» [رواه الطبراني] وُضعف الحديث.

وقال عليه السلام: «من حمى مؤمنا من منافق يعيبه بعث الله ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم» رواه أبو داود، وفي روايته: «من حمى مؤمنا من منافق أذاه قال: بعث الله ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلما بشيء يريد شينه به حبسه الله على جهنم حتى يخرج مما قال». وكفى قول الشاعر الحصيف:

فإن عبت قوما بالذى فيك مثله  
وإن عبت قوما بالذى ليس فيهم  
وإلى هذا أشارت أبيات الشافعي:

إذا رمت أن تحيا سليما من الردى  
فلا يفتقن منك اللسان بسوأة  
وعيناك إن أبدت إليك معائبا  
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى  
ودينك موفور وعرضك صيّن  
فكلك سوءات وللناس ألسن  
فدعها، وقل يا عين للناس أعين  
ودافع ولكن بالتى هى أحسن

\*\*\*

وفي نهاية الأمر يحث الشافعي على القناعة فيقول:

أمتُ مطامعي فأرحت نفسي  
وأحييت القنوع وكان ميتا  
إذا طمع يحل بقلب عبدٍ  
فإن النفس ما طمعت تهونُ  
ففى إحيائه عرضُ مصون  
علته مهانة وعلاه هون

الآدمى موضوع على مطلوبات تُشتت الهم؛ العين تطلب المنظور،  
واللسان يطلب الكلام، والبطن يطلب المأكول، والفرج المنكوح، والطبع  
يحب جمع المال.

وقد أمرنا بجمع الهم لذكر الآخرة، والهوى يشتته.  
فكيف إذا اجتمعت إليه حاجات لازمه من طلب قوت البدن وقوت  
العيال؟ وأى هم يجتمع خصوصا إذا أخذته الشره فى صوره فيمضى العمر  
فينهض من الدكان إلى القبر؟

وكيف يحصل العلم أو العمل أو إخلاص القصد أو طلب الفضائل؟  
فمن رُزق يقظة فينبغى أن يصابر لنيل الفضائل، وليقلل الهم على  
مقدار ما يمكنه من حذف العلائق جهده ليجمع الهم فى ذكر الآخرة  
فإن لم يفعل أخذ فى غفلته وندم فى حفرته.

وأقبح الأحوال حال عالم فقيه كلما جمع همه لذكر الآخرة شتته طلبُ  
القوت للعائلة. وربما احتاج إلى التعرض للظلمة وأخذ الشبهات، وبذل  
الوجه فيلزم هذا التقدير فى النفقة، وإذا حصل له شيء من وجه دبر فيه.  
ولا ينبغى أن يحمله قصر الأمل على إخراج ما فى يده فقد جاء فى  
الحديث: «لأن تذر ورثتك أغنيا خير من أن تتركهم عالة يتكفون  
الناس» [أخرجه البخارى ومسلم].

وأذل من كل ذل التعرض للبخلاء والأمراء.  
ومعنى الحديث السابق: لو أنك تركت ورثتك أغنيا خير لك ولهم من  
أن يكونوا فقراء يسألون الناس بأكفهم فتكون المسألة مذلة لهم فى الدنيا  
والآخرة، والمراد بالغنى هنا: الكفاية وليس المراد كثرة المال فقد لا يتوفر لهم

ذلك، فمن وجد في الحياة ما يكفيه من المأكل والمشرب والملبس والمسكن وغير ذلك مما يوفر له المعيشة الطيبة فقد حيزت له الدنيا بحذاقها. والضروريات المهمات سبعة أشياء: الطعام والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه.

وفي الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا.

وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد. وينبغي أن يعول في ذلك على ثلاث علامات: الأولى: أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾<sup>(١)</sup>، وهذه علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوى عنده زامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه. الثالث: أن يكون أنسه بالله والغالب على قلبه محبته وحلاوة الطاعة. فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى فهما في قلب العبد كالماء والهواء في القدح إذا دخل الماء خرج الهواء فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأُنس بالله. وقال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها (أى التى تمشطها) والزهاد يسخّم<sup>(٢)</sup> وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها.

\*\*\*

(١) سورة الحديد الآية ٢٣.

(٢) سخّم: سؤد.

بهذه الأخلاق: القناعة والزهد والعفة وصيانة اللسان والجوارح عن انتهاك الأعراض يسود المرء قومه ويرضى ربه ويفلح فى دنياه وآخرفته.. وبهذا نبه الشافعى وساد وصار علما من أعلام الأمة الإسلامية. وهكذا تكون زينة المرء بالأخلاق الحسنة وليس بملبسه أو مظهره:

على ثياب لو يُباع جميعها      بفلس لكان الفِلس منهن أكثرا  
وفيهن نفسٌ لو تقاس ببعضها      نفوسُ الورى كانت أجلُّ وأكبرا

\*\*\*

### الحض على الترحال

ما فى المقام لذى عقل وذى أدب      من راحة فدم الأوطان واغترب  
سافر تجد عوضا عن تفارقه      وانصب<sup>(١)</sup> فإن لذيد العيش فى النصب  
إنى رأيت وقوف المء يفسده      إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب  
والأسدُ لولا فراق الأرض ما افترست      والسهم لولا فراق القوس لم يصب  
والشمس لو وقفت فى الفلك دائمةً      للمها الناس من عجم ومن عرب  
والتبر<sup>(٢)</sup> كالترب ملقى فى أماكنه      والعود فى أرضه نوع من الحطب  
فإن تغرب هذا عز مطلبه      وإن تغرب ذاك عز كالذهب

\*\*\*

(١) انصب: فعل أمر من نصب نصبا: جد فى الأمر واجتهد فيه.

(٢) التبر: ما كان من الذهب غير مضروب، وبعضهم يقول التبر على الفضة أيضا.

سأضرب في طول البلاد وعرضها أنال مرادى أو أموت غريبا  
فإن تلفت<sup>(١)</sup> نفسى فقله درُها وإن سلمت كان الرجوع قريبا

\* \* \*

تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففى الأسفار خمس فوائد  
تفرج هم واكتساب معيشة وعلمٌ وآداب وصحبة ماجد<sup>(٢)</sup>

\* \* \*

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهامه<sup>(٣)</sup> والقفقر<sup>(٤)</sup>  
فوالله ما أدرى ألفتوز والغنى أساق إليها أم أساق إلى القبر؟

\* \* \*

ارحل بنفسك من أرض تُضام بها<sup>(٥)</sup> ولا تكن من فراق الأهل فى حُرَق<sup>(٦)</sup>  
فالعنبر<sup>(٧)</sup> الخام روث<sup>(٨)</sup> فى موطنه<sup>(٩)</sup> وفى التغرب<sup>(١٠)</sup> محمول على العنق<sup>(١١)</sup>

(١) تلفت : هلكت.

(٢) ماجد : من مجد الرجل صار كريما إذا خلق طيب ، والماجد : كريم النفس طيب الخلق.

(٣) المهامه : المفازة البعيدة والصحراء القاحلة ومفردها مَهْمَةٌ.

(٤) القفقر : الصحراء التى لا نبات فيها ولا ماء، والجمع قفار.

(٥) تُضام : تُظلم وتُقبهر وتُخذل.

(٦) حُرَق : شوق ولهفة.

(٧) العنبر : طيب يستخرج من بطن الحوت بعد موته.

(٨) روث : فضلات.

(٩) موطنه : مكانه.

(١٠) التغرب : الترحال والسفر.

(١١) العنق : الرقبة.

والكحل نوع من الأحجار تنظره في أرضه وهو مرمى على الطرق  
فإن تغرب حاز الفضل أجمعه فصار يُحمل بين الجفن<sup>(١)</sup> والحدق<sup>(٢)</sup>

### شرح الأبيات

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «سافروا تربحوا،  
وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا» رواه أحمد، وذكره السيوطى فى الجامع  
بلفظ: «سافروا تصحوا، واغزوا تستغنوا» وحسنه.

سيدنا رسول الله ﷺ معلم وطبيب ملهم، وحكيم تفجرت من قلبه  
ينابيع الحكمة؛ وصاياه أصول للأخلاق والمثل العليا، قواعد عامة  
للسلوك الرشيد، ومنهج للحياة الفاضلة فى جميع مظاهرها. وهذه  
الوصية واحدة من تلك الوصايا الجامعة النافعة التى من شأنها أن توضع  
موضع الاعتبار والتنفيذ.

قوله ﷺ: «سافروا تربحوا» ترجمة موجزة لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ  
وِرَسُولِهِ ثُمَّ يَدْرِكْ الْمَوْتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>.

أى: من يغادر محل إقامته إلى أرض الله الواسعة غازيا أو طالبا للعلم،  
أو ساعيا للرزق، و نحو ذلك من المطالب المشروعة، فإنه سيجد فى  
الأرض التى هاجر إليها خيرا يرغب به حساده، ومألا وفيرا يقيم أوداه،  
وعلما نافعا يُقوم به خلقه، ويصلح به أمور دينه ودنياه.

(١) الجفن: جفن العين، والجفن أيضا (ليس هنا): غمد السيف.

(٢) الحدق: حدقة العين سواها الأعظم والجمع حدق وحادق، والتحديق: شدة النظر.

(٣) سورة النساء الآية ١٠٠.

ومن يخرج من بيته بنية الهجرة إلى الله تعالى ثم يدركه الموت فقد ثبت أجره عند الله عز وجل؛ لأن الأعمال بالنيات.

والهجرة والسفر هنا بمعنى واحد، ويختلف الحكم في السفر باختلاف النية- وهي القصد المقترن بالفعل- وباختلاف الغاية- وهي التي من أجلها كان القصد- فالقصد يكون في أول العمل، والغاية تكون في آخره.

فأحيانا يكون السفر واجبا؛ وذلك لتأدية فريضة الحج، وطلب العلم إذا لم يكن في البلد معلم، وطلب الرزق إذا ضاقت عليه سبل العيش في بلده، كما يكون السفر واجبا إذا خشى على نفسه الفتنة.

ويكون مستحبا إذا كان القصد منه طلب النظر في آيات الله الكونية أو طلب العافية؛ فإن في السفر ترويحاً للنفس وتقوية للبدن، ويكون مباحا فيما سوى ذلك، كما يكون حراما إذا كان في معصية، والأمر بالسفر في هذا الحديث ليس للوجوب مطلقا؛ ولكنه للنصح والإرشاد والتوجيه والترغيب.

والسفر لفظ يُطلق ويُراد به الانتقال والتحول من بلد إلى بلد في مسافة تُقصر فيها الصلاة وهي مُقدرة عند جمهور الفقهاء بنحو من ثمانين كيلومترا.

والهجرة كالسفر - كما قلنا - إلا إننا نلمح فيها معنى البعد الشاسع بين البلد التي يخرج منها والبلد التي يريد أن يرحل إليها لما فيها من معنى الهجران وهو البعد الذي لا يمكن الإنسان من العودة ببسر وسهولة. وقد سُمى السفر سفرا؛ لأن الإنسان إذا خرج من بلده يكون سافرا أى ظاهرا تراه الأعين، من قولهم: أسفر الصبح أى ظهر ووضح، ثم إن

الهجرة كما تُطلق على الترك والتحول تطلق على الخصام وقطع الوصال ومنه قوله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» أى لا يحل له خصامه وقطع حبال وده.

وقد علّق النبي ﷺ الريح على السفر مع أنه يحصل بالسفر وغيره؛ لأن السفر مظنة الريح الكثير والخير الوفير، كما جاء فى رواية أخرى للحديث: «سافروا تستغنوا» أى: سافروا لطلب الغنى، فالسين والتاء للطلب، أو سافروا تجدوا الغنى على أن السين والتاء للتوكيد. والريح ضد الخسران، وهو دنيوى وأخرى، والنوعان متلازمان حيناً ومنفصمان حيناً، فمن أراد الدنيا خسر الدنيا والآخرة، ومن أراد الآخرة ربحهما معاً، كما قال الشافعى رضى الله عنه:

**فإن تلفتت نفسى فلله دَرها<sup>(١)</sup> وإن سلمت كان الرجوع قريباً**

ومن هنا يتبين لنا من قوله ﷺ: «سافروا تربحوا» أى تربحوا فى الدنيا والآخرة إن كان القصد من سفركم الطاعة.

أما إن كان القصد فيه المعصية فلا ربح فيه مهما حصل المسافر فى سفره من مال وغيره من متاع الدنيا؛ لأنه لما أراد الدنيا وضرب صفحاً عن الآخرة خسر الدنيا والآخرة معاً؛ ما لم يتب من ذنبه ويصلح من شأنه ويجدد العهد مع ربه على السمع والطاعة فى الحِل والترحال وفى السراء والضراء والشدة والرخاء.

والشافعى فى أبياته السابقة يحث على السفر ويرغب فيه ويذكر

(١) دَرها: لله تعالى دَره: أى عمله، والله دَره من رجل.

فيه فوائد كثيرة؛ مستدلاً على ذلك بما يراه الناس من مظاهر الطبع والطبيعة، وهو فقيه نابه قد جرب الحياة وعركها وأحب الأسفار فكان حالاً مرتحلاً في طلب العلم ونشره لهذا كان قوله هو الصواب الذي لا معدل عنه لموافقته الكتاب والسنة كما تقدم بيانه.

ففي الأسفار الربح والصحة، وهما نعمتان عظيمتان جامعتان لسائر النعم بعد الإيمان، والربح كلمة جامعة لما يحصل عليه المرء من الرزق الواسع والعلم الغزير، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا من فقدها، وهي أيضاً كلمة جامعة لعافية الأبدان والعقول والأرواح.

فالمسافر يجد من خلال سفره ما يروح به عن نفسه ويجدد به نشاطه ويغذى به فكره ويزداد به إيمانا مع إيمانه لكثرة ما يرى من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته عز وجل؛ مع ما يحصل عليه من رزق واسع وخير وفير يحفظ به دينه وعرضه، ويمتع به نفسه بالطيبات التي يستطيع أن يحصل عليها بما لديه من مال.

ولا شك أن من سافر إلى حيث شاء الله أن يسافر يكون أفضل حالا من المقيم بدرجات في الخبرة والمعرفة والثقافة والعلم بأحوال البيئات والمجتمعات المتحضرة وغير المتحضرة.

ولهذا حث الله عز وجل على السير في الأرض والنظر فيما تحتويه من آثار جليلة وأسرار خفية فقال عز وجل: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

(١) سورة يونس الآية ١٠١.

وقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا  
وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١).

إن الحياة حركة، والحركة في موضع واحد كسل وخمول.  
وقد استعاذ النبي ﷺ من الكسل والخمول وأمر أصحابه أن يتعبدوا  
منهما ومما يتصل بهما فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن  
وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من  
غلبة الدين وقهر الرجال».

ومن تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة (فحب الهوينا يُكسب  
النصب)، وقد قيل: إن أردت ألا تتعب فاتعب لثلا تتعب، وقيل:  
إياك والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقا وإن ضجرت لم تصبر  
على الحق، قال الشاعر:

إن التواني أنكح العجز بفته      وساق إليها حين أنكحها مهرا  
فراشا وطينا ثم قال لها اتكى      فقصرا كما لا شك أن تلدا الفقرا

وقال يزيد بن المهلب: ما يسرنى أنى كفيت أمر الدنيا كله لثلا أتعود  
العجز؛ ولأن الفراغ يبطل الهيئات الإنسانية، فكل هيئة؛ بل كل عضو  
ترك استعماله يبطل ولذلك وضعت الرياضات فى كل شىء؛ وتأمل حال  
مريم- عليها السلام- وقد جعل لها من الرطب الجنى ما كفاها مؤونة  
الطلب- وفيه أعظم معجزة- فإنه لم يخلها من أن يأمرها بهز النخلة  
فقال تعالى: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِمِجْزِ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢).

(١) سورة الملك الآية ١٥.

(٢) سورة مريم الآية ٢٥.

وإذا تأملت قوله ﷺ: «سافروا تغنموا» ونظرت إليه نظرا عاليا علمت أنه حثك على التحرك الذى يثمر لك جنة المأوى ومصاحبة الملائكة الأعلى؛ بل مجاورة الله تعالى، وذلك يحتاج إلى أربعة أشياء:

١- معرفة المقصود المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِمَةٌ لِّذِي مُبِينٍ﴾ (١).

٢- معرفة الطريق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ (٢).

٣- وتحصيل الزاد المبلغ المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ (٣).

٤- والمجاهدة فى الوصول إليه كما قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (٤).

فبهذه الأشياء يأمن السالك الغرور الذى خوفه الله منه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٥).

وهذه من المعانى التى دونها هول العوالى، ولا ضير لمن رامها أن يتذرع بالصبر، فقد أصاب من قال:

**فقل لمرجى معالى الأمور بغير اجتهاد رجوت المحالا**

(١) سورة الذاريات الآية ٥٠.

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٨.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٧.

(٤) سورة الحج الآية ٧٨.

(٥) سورة فاطر الآية ٥.

## واعظ الناس

يا واعظ الناس عما أنت فاعله      يا من يُعدُّ عليه العمرُ بالنفس  
 احفظ لشيبك من عيب يدنسه      إن البياض قليل الحمل للدنس  
 كحامل لثياب الناس يغسلها      وثوبه غارق في الرجس والنجس  
 تبغى النجاة ولم تسلك طريقها      إن السفينة لا تجرى على اليبس  
 ركوبك النعش ينسيك الركوب على      ما كنت تركب من بغل ومن فرس  
 يوم القيامة لا مال ولا ولد      وضمة القبر تنسي ليلة العرس

\* \* \*

### شرح الأبيات

يقول الشاعر:

لا تلم المرء على فعله      وأنت منسوب إلى مثله  
 من ذم شيئاً وأتى مثله      فإنما دلّ على جهله

وقيل لعيسى ابن مريم: من أدبك؟ فقال: «ما أدبني أحد، رأيت  
 جهل الجاهل فتجنبتة».

وقال آخر: من نظر في عيوب فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذاك  
 الأحمق حقاً.

وقال ابن المقفع: من نظر في عيبه استعظم زلة نفسه، ومن سل سيف  
 البغي قُتل به.

يقول جل شأنه: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ  
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤) ﴿١﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ  
كَبْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢﴾.

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من  
نبي بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون (خلصاء الأنبياء  
وأصفياءهم) وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من  
بعدهم خلوف<sup>(٣)</sup> يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم  
بيده فهو مؤمن، ومن جامدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو  
مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»<sup>(٤)</sup> [رواه مسلم].

وعن أبى زيد أسامة بن زيد بن حارثة- رضى الله عنهم- قال:  
سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار  
فتندلق أقتاب<sup>(٥)</sup> بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا<sup>(٦)</sup>، فيجتمع  
إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى  
عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر  
وآتية» [متفق عليه].

(١) سورة البقرة الآية ٤٤.

(٢) سورة الصف الآية ٢-٣.

(٣) خلوف: جمع خلف بإسكان اللام وهو الخالف بشر.

(٤) خردل: حبة صغيرة جداً فى قدر السمسة أو أصغر.

(٥) تندلق أقتاب: تخرج الأمعاء وواحدها قُتْبُ.

(٦) الرحا: الطاحون.

أما قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ  
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤٤). فمعناه: كيف يليق بكم يا معشر أهل  
الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر- وهو جماع الخير- أن تنسوا أنفسكم  
فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون  
ما فيه على من قصر في أوامر الله؟ قال قتادة: كان بنو إسرائيل  
يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه ويخالفون، فعيّرهم الله عز وجل، وقال  
أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم  
يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا. وليس المراد ذم أهل الكتاب على  
أمرهم بالبر؛ بل المراد ذمهم على أمرهم به وتركهم له فإن الأمر بالمعروف  
معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع  
من أمرهم به ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا أُرِيدُ  
أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ ﴾ (١) فكل من الأمر بالمعروف وفعله  
واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر؛ قال سعيد بن جبير: لو كان المرء  
لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر  
أحدا بمعروف ولا نهى عن منكر، فالصحيح أن العالم يأمر بالمعروف  
وإن لم يفعله وينهى عن المنكر وإن ارتكبه مع المجاهدة للنفس باستمرار.  
وفي الحديث: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كممثل  
السراج يضيء للناس ويحرق نفسه» [رواه الطبراني في الكبير].

وقال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على قوم تُقرض شفاههم  
بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا

(١) سورة البقرة الآية ٤٤.

(٢) سورة هود الآية ٨٨.

ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟» [رواه أحمد في مسنده].

فمن آداب النصيحة أن يعمل الناصح بالنصيحة التي يوجهها للناس لعل الله أن ينفع بها.. فخطاب الشافعي في الأبيات السابقة موجه إلى كل واعظ وناصح: إذا أردت أن ينفع الله بدعوتك ونصيحتك فاعمل بها أنت أولاً:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم  
أبدأ بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فنهى الواعظ عن الفعل مع إتيانه له من أكبر القواصم التي يتعرض لها في الحياة؛ أن يتكلم بكلام جميل وفعله قبيح فيكذب فعله قوله: فلا يتقبل الناس منه ولا يجعل الله لكلامه تأثيراً ولا نورا، ومن المعروف عند علماء التربية أن التربية بالقدوة الحسنة هي أمثل الوسائل في تقويم اعوجاج النفوس البشرية وتوجيهها للحق.

وأما الحديث عن الرجل الذي يدور في النار تندلق أقتابه فقد علق عليه بعض العلماء فقال: «ما دخل النار بسبب أمره ولا بسبب نهيه؛ إنما دخل النار بسبب مخالفته أمره ونهيه، ولذلك تجد بعض الناس عنده ورع بارد بالدعوة؛ صامت مظلم، يقال له: مالك لا تدعو؟ فيقول: أخشى من صاحب الرحا في نار جهنم، أخشى أن أدور بالرحا!!».

إن الحديث لام هذا الرجل؛ لأنه خالف، أما إذا أمر وائتمر ونهى وانتهى فهو ماجور. وإذا وقع الواعظ في الخطأ عليه أن يسدد ويقارب، فبعض الناس يظن أن الداعية عليه أن يكون معصوماً، أولاً يذنب أبداً، كأن الداعية إذا وقع في خطأ بسيط ارتكب الجرائم وخرج من الملة!!

ولذلك خطأ الدعاة مُضخم وحسناتهم مصغرة... قال عامر الشعبي: «والله الذى لا إله إلا هو لو أحسننت تسعا وتسعين لنسوها ولعدوا على غلطة واحدة!».

### تريد مهذباً لا عيب فيه وهل طيب يفوح بلا دخانٍ

إذا لمن العصمة؟ لمحمد ﷺ، والدعاة ليسوا معصومين، فقد يخطئون لكنهم يراجعون خطأهم ويتوبون إلى الله الواحد الأحد. ومن حديث الشافعي رحمه الله - عن أصل من أصول الوعظ أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نعلم أن ذلك فرض على كل مسلم كما ورد في الحديث الشريف: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [رواه مسلم]. هذا.. وإنما يجب إزالة المنكر باليد إذا لم يخف على نفسه ضرراً وإلا فلا يجب بل يُسن ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. لأنه مخصوص بغير ما فيه إزالة المنكر، ولذا كان السلف الصالح يتعرضون لإزالته ولا يبالون بالأخطار كما حُكى أن زاهداً كسر ملاهى مروان بن الحكم فأمر أن يلقي بين يدي الأسود، فأدخلوه في موضعها فافتتح الصلاة فجاءه جميع ما فى ذلك المكان من الأسود وصارت تلحسه بالسنتها وهو يصلى ولا يبالي بها، فلما أصبح مروان قال: ما فعل بزاهدنا؟ انظروا هل أكلته الأسود؟ فوجدوها قد استأنست به، فتعجبوا من ذلك وأخرجوه.

(١) سورة البقرة الآية ١٩٥.

فإن لم يستطع التغيير بيده فبلسانه أى فليغيره بقوله : كأن يأمر العاصي بترك المنكر ويوبخه على فعله أو يهدده إن لم يتركه ويتوعده بإحضار أعوان السلطان أو يذكره بالله وبأليم عقابه مع لين أو إغلاظ بحسب ما يقتضيه الحال وأن تكون النصيحة على انفراد كما قال الشافعي :

تغمدنى بنصحك فى انفرادى      وجنبنى النصيحة فى الجماعة  
فإن النصح بين الناس نوع      من التوبيخ لا أَرْضَى استماعه  
وإن خالفتنى وعصيت قولى      فلا تجزع إذا لم تُعط طاعة

كما أنه يجب أن يوافق كلامه مقتضى الحال وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم فقد قال عليه السلام : «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم» .

وقد يبلغ بالرفق ما لا يبلغه بغيره، حُكى أن رجلاً أكثر من شرب الخمر بالشام فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب له :

﴿حَمِّ ١﴾ تَزِيلُ الْكَنْبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ  
شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ ، فترك الرجل الخمر وتاب منها. فالرفق واجب فيمن لا ينفع معه إلا الرفق كالجاهل، ومن يخاف شره وذلك لأنه أقوى فى الامتثال.

«فإن لم يستطع فبقلبه» أى فإن لم يقدر على التغيير بلسانه كأن خاف على نفس أو عضو أو مال أو إثارة فتنة (فبقلبه) أى فلينكره بقلبه بأن ينكره ويكرهه ولا يرضى به ويعزم على أنه لو قدر على تغييره بفعل أو قول لفعل، وهذا فرض عين على كل إنسان لقدرة كل أحد عليه بخلاف اللذين قبله.

(١) سورة غافر الآيات ١-٣ .

وقيل: إن المراد أن ذلك أقل آثار الإيمان وثمراته إذ فيه الكراهة فقط، وهي لا يحصل بها زوال مفسدة المنكر.

ونقل عن سيدى إبراهيم المتبولى<sup>(١)</sup>: إن تغيير المنكر باليد يكون للسولة الذين يَضربون ولا يُضربون، وتغييره باللسان للعلماء العاملين فيؤثر زجرهم باللسان فى الفاعل فيرجع عن ذلك المنكر، وتغييره بالقلب على العارفين الذين غلب عليهم شهود احتقارهم نفوسهم أن يكونوا ناهين لغيرهم فيتوجه أحدهم بقلبه إلى الله عز وجل فى تغيير ذلك المنكر فيكف الظالم عن ظلمه وشارب الخمر عن شربه فهذا هو التغيير حقيقة، وأما قول الإنسان: إن هذا منكر لا أرضاه فليس فيه تغيير قلب.

واعلم أنه قد وردت أحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها قوله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوو خياركم فلا يستجاب لهم» [رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار].

وقال أنس رضى الله عنه: «من سمع أحدا يفعل منكرا ولم ينهه جاء يوم القيامة أصم مقطوع الأذنين».

وقال أبو أمامة - رضى الله تعالى عنه - يُحشر ناس من هذه الأمة على صورة القردة والخنازير بملاصقتهم أهل المعاصى وتركهم نهيمهم وهم قادرون.

---

(١) هو إبراهيم بن على بن عمر: صالح مصرى؛ للعامه فيه اعتقاد وغلوه، كانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا ترد، وله بر ومعروف. له «الأخلاق التبولية»، ت ٨٧٧ هـ.

ثم إن هذا الحديث قاعدة من قواعد الدين ، وظاهره أن الإنسان يلزمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .  
ويؤيد أبيات الشافعي السابقة قوله :

المراء إن كان عاقلا ورعا      أشغله عن عيوب غيره ورعُه  
كما العليل السقيم أشغله      عن وجع الناس كلهم وجعه

لا كما قيل في المثل : «يرى القذاة في عين أخيه ولا يرى الشوكة في عينه» .

ثم يُذكر الشافعي واعظ الناس ناسي نفسه بالموت وكربه فيقول :

ركوبك النعش ينسيك الركوب على      ما كنت تتركب من بغل ومن فرس  
يوم القيامة لا مال ولا ولد      وضمة القبر تنسى ليلة العرس

ففي تذكرته للموت كل التقوى ، والتقوى تدخله الجنة وتجعله يعظ نفسه قبل الناس بل والتقوى جماع كل فضيلة كما ورد في الحديث الذي رواه أحمد : «استحيوا من الله حق الحياء : قلنا : يا رسول الله : إنا نستحي والحمد لله . قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى ، وليحفظ البطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلوى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله عز وجل حق الحياء» ، فقد عرّف الحياء تعريفا تُعرف به التقوى بحفظ الرأس وما حوى من الحواس عن المعاصي ، والبطن وما حوى عن أكل الحرام والشبهات ، وذكر الموت والفناء وبلى الجسد وتذكر الآخرة ، فمن فعل ذلك كان حيبا تقيا ، كما أنه يزهد بقلبه في الدنيا وما فيها ؛ إن أتاه خير شكر وإن أتاه شر صبر وهذا حال المؤمن .

## العلم مفخرة الإنسان

اصبر على مُر الجفا<sup>(١)</sup> من معلم  
ومن لم يذق مُر التعلم ساعة  
ومن فاتته التعليم وقت شبابه  
وذاتُ الفتى والله بالعلم والتقى  
فإن رسوب العلم<sup>(٢)</sup> في نفراته<sup>(٣)</sup>  
تجرع<sup>(٤)</sup> ذل الجهل طول حياته  
فكَبُرَ عليه أربعاً لوفاته  
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

\* \* \*

العلم مغرس كل فخر فافتخر  
واعلم بأن العلم ليس يناله  
إلا أخو العلم الذي يُعنى به  
فاجعل لنفسك منه حظاً وافراً  
فلعل يوماً إن حضرت بمجلس  
واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس  
من همه في مطعم أو ملبس  
في حالتيه عارياً أو مُكتسى  
واهجر له طيب الرقاد وعبس<sup>(٥)</sup>  
كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس

\* \* \*

شكوتُ إلى وكيع<sup>(٦)</sup> سوء حفظي  
وأخبرني بأن العلم نور  
فأرشدني إلى ترك المعاصي  
ونور الله لا يُهدى لعاصي

\* \* \*

(١) مُر الجفا: شدة القسوة والجفا ضد: البر، وأصلها الجفاء ورفعت الهمزة حتى لا يُكسر البيت الشعري.

(٢) رسوب العلم: سفولة العلم وقلته وضياعه، والمقصود ضياع العلم.

(٣) نفراته: تجافيه وتباعده في ابتعاد فترات مراجعته وتدارسه.

(٤) تجرع: جرع: بلع بصعوبة، ومنها تجرع التخصص كناية عن نزول العذاب.

(٥) عبس: قطب وجهه كناية عن اتخاذ مظهر الجد.

(٦) وكيع: معلم الشافعي.

سهرى لتفقيح العلوم<sup>(١)</sup> أُلذ لي  
 وصريير أقلامى<sup>(٢)</sup> على صفحاتها  
 وألذ من نقر الفتاة لدُفها<sup>(٥)</sup>  
 وتمايلى طربا لحل عويصة<sup>(٦)</sup>  
 وأبيت سهران الدجى<sup>(٨)</sup> وتبيته  
 من وصل غانية<sup>(٢)</sup> وطيب عناق  
 أحلى من الدوكاء<sup>(٤)</sup> والعشاق  
 نقرى لألقى الرمل عن أوراقى  
 فى الدرس أشهى من مُدامة ساق<sup>(٧)</sup>  
 نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى؟!

\*\*\*

علمى معى حيثما يمممت ينفعننى  
 إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى  
 قلبى وعاء له لا بطنُ صندوق  
 أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

\*\*\*

إن الفقيه هو الفقيه بفعله  
 وكذا الرئيس هو الرئيس بخُلقه  
 ليس الفقيه بنطقه ومقاله  
 ليس الرئيس بقومه ورجاله  
 وكذا الغنى هو الغنى بحاله  
 ليس الغنى بمُلِكه وبماله

\*\*\*

(١) تنقيح العلوم: استخراج ما فى العلوم من فوائد ظاهرة وباطنة.

(٢) غانية: المرأة المتزينة للرجال، والجمع غوان.

(٣) صريير أقلامى: صوت الأقلام على الأوراق يسمى صريرا.

(٤) الدوكاء: الاختلاط بين القوم فى المجالس، والمقصود الأُنس بالناس.

(٥) نقر الدف: ضرب الدف.

(٦) عويصة: مسألة غامضة.

(٧) مُدامة ساق: الخمر وكل ما يُسكر.

(٨) الدجى: الليل.

لا يدرك الحكمة من عُمره      يكدحُ في مصلحة الأهل  
ولا ينال العلم إلا فتىً      خالٍ من الأفكار والشغل  
لو أن لقمان الحكيم الذي      سارت به الركبان بالفضل  
بُلي بفقر وعيالٍ لما      فرّق بين التبن<sup>(١)</sup> والبقل<sup>(٢)</sup>!

\*\*\*

رأيت العلم صاحبه كريماً      وليو ولدته آباء لئام  
وليس يزال يرفعه إلى أن      يُعظم أمره القوم الكرام  
ويتبعونه في كل حالٍ      كراعى الضأن تتبعه السوام  
فلولا العلم ما سعدت رجال      ولا عُرف الحلال ولا الحرام

\*\*\*

أخى لن تنال العلم إلا بسةً      سأنبئك عن تفصيلها ببيان  
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة<sup>(٣)</sup>      وصحبة أستاذٍ وطول زمان

\*\*\*

كل العلوم سوى القرآن مشغلةً      إلا الحديثَ وعلمَ الفقه في الدين  
العلم ما كان فيه قال حدثنا<sup>(٤)</sup>      وما سوى ذلك وسواس الشياطين

(١) التبن: ساق الزرع بعد درسها.

(٢) البقل: كل نبات اخضرت به الأرض، قاله ابن فارس.

(٣) بلغة: ما يُتبلغ به من العيش ولا يفضل، ويعنى هنا: الكفاف والانشغال بطلب العلم

وليس بجمع المال الزائد عن الحاجة.

(٤) قال حدثنا: المقصود: حدثنا فلان عن فلان وهو ما يسمى بالنعنة، ويمكن أن يعنى به

علم الحديث فقط أو علوم الدين أجمع وربما دخل فيه علوم اللغة العربية.

## شرح الأبيات

الإنسان وإن كان - بكونه إنسانا - أفضل موجود فذلك بشرط أن يراعى ما به صار إنسانا: وهو العلم الحق والعمل المحكم، فيقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل، ولهذا قيل: الناس أبناء ما يحسنون. قالها الإمام على كرم الله وجهه؛ أى ما يعرفون ويعملون من العلوم والأعمال الحسنة، يقال: أحسن فلان إذا علم وإذا عمل حسنا. أما الإنسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان، ومن حيث الصورة التخطيطية فمثل صورة فى جدار!!

والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء: عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعْمِرُكُمْ فِيهَا﴾<sup>(١)</sup>، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره، وعبادته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>(٢)</sup>. وذلك هو الامتثال للبارى عز وجل فى أوامره ونواهيه، وخلافته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالبارى سبحانه على قدر طاقة البشر فى السياسة باستعمال مكارم الشريعة. ومكارم الشريعة هى: الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس، والحلم والإحسان والفضل، والقصد منها أن تبلغ إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تعالى.

(١) سورة هود الآية ٦١.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٢٩.

وبهذا النظر قيل: «تفقهوا قيل أن تسودوا» رواه البيهقي عن عمر. تنبيهها على أن المرء لا يصلح للسيادة قيل معرفة الفقه والسياسة العامة. ومكارم الشريعة مبدؤها طهارة النفس باستعمال التعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة، ونهايتها التخصص بالحكمة والجود والحلم والإحسان، فبالعلم يُتوصل إلى الحكمة، وباستعمال العفة يتوصل إلى الجود، وباستعمال الصبر تدرك الشجاعة والحلم، وباستعمال العدالة تصحح الأفعال.

ومن حصل له ذلك فقد تدرع المكرمة المعنية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾<sup>(١)</sup>، وصلح لخلافة الله تعالى، وصار من الربانيين والشهداء والصديقين، وهذا ما عناه الشافعي إذ يقول:

وذاً التقى والله بالعلم والتقوى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

ويكفي العلم شرفاً أنه كان في أول ما بدأ به الوحي على النبي ﷺ إذ جاءه الأمر بأن يقرأ من جبريل - عليه السلام - ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾<sup>(٢)</sup>.

إن من كرم الخالق سبحانه أن خلق من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين خلقاً يتعلم ويقرأ ورفع هذا العلق (النطفة الدموية الجامدة العالقة بالرحم) إلى درجة الإنسان الذي يُعَلَّم فيتعلم.. إنها نقلة بعيدة

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) سورة العلق الآيات ١ - ٥.

بين المنشأ والمصير.. ولكن الله قادر... ولكن الله كريم.. ومن ثم كانت هذه النقطة التي تدير الرؤوس!

وإلى جانب هذه الحقيقة- كما يقرر الأستاذ سيد قطب في تفسيره - تبرز حقيقة التعليم.. تعليم الرب للإنسان «بالقلم»؛ لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا في حياة الإنسان.. ثم تبرز الآيات مصدر التعليم... إن مصدره هو الله... منه يستمد الإنسان كل ما علم.. وكل ما يعلم وكل ما يُفتح له من أسرار هذا الوجود ومن أسرار هذه الحياة ومن أسرار نفسه.. فمصدر كل هذا هو الله الذى خلق والذى علم ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾<sup>(١)</sup>.. لقد بدأ الوحي إلى الرسول ﷺ منوها بالقراءة والتعليم بالقلم، ثم أكد هذه اللفتة بسورة القلم إذ أقسم بحرف النون ﴿بِالنَّوْمِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وكان هذا حلقة من المنهج الإلهي لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكوني الضخم الذى قدره لها فى علمه المكنون. وتتوالى الأحاديث النبوية تترى مؤكدة على أهمية العلم وفضيلة التعلم منها قوله ﷺ: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه» [رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف]. وعن معاوية رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّمِهِ فِي الدِّينِ» [متفق عليه].

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا حسد

(١) سورة العلق الآية ٥.

(٢) سورة القلم الآية ١.

إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

والمراد بالحسد هنا الغيبة وهو أن يتمنى مثله.

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال لعلى رضى الله عنه: «فو الله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خيرا لك من حُمْرِ النَّعَمِ»<sup>(١)</sup> [متفق عليه].

وعن أنس رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يرجع» [رواه الترمذى وحسنه].

فعلى المسلم أن ينفذ وصايا الرسول ﷺ خاصة أن الآيات القرآنية تؤيدها - فعليه الصلاة والسلام - وصفه الله بقوله: ﴿ وَمَا يَطُوقُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدَىٰ يُؤْتَىٰ ﴿٤﴾<sup>(٣)</sup>.

وكفى أن الله تعالى شرط خشيته تعالى بالعلم والمعرفة به: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾<sup>(٤)</sup>، ولذا ورد فى الحديث: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له» فإنما يعظم الله من عباده العلماء وذلك لكونهم أعرف الناس بربهم وأتقاهم له. ومن خلال ذلك التفسير الواضح نعرف من هم العلماء الحقيقيون الأحياء بأخلاقهم وآثارهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. إنهم العارفون بالله الذين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من العلم والمعرفة إلا بالتقوى وهى «الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل

(١) حُمْرِ النَّعَمِ: كرائم الجمال ويؤنث ويذكر وجمعه نُعَمَان.

(٢) سورة النجم الآيتان ٣ - ٤.

(٣) سورة فاطر الآية ٢٨.

والاستعداد ليوم الرحيل» [من كلام سيدنا علي رضي الله عنه]، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>.

فمن اتقى الله علمه الله ومن علمه الله حق العلم خشى الله، من اتقى الله جعل الله في قلبه نوراً يفهم به ما يلقي إليه، ويجعل له فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَفَقَّأَ اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد ورد في سيرة الإمام الشافعي أنه كان - وهو صغير - لسرعة حفظه وشدة إتقانه وتوقد ذكائه إذا أراد أن يقرأ في كتاب وضع كفه الأيسر فوق الصفحة اليسرى حتى لا يحفظها قبل اليمنى، وورد أنه ذات يوم - وهو صغير في سن السابعة - كان جالساً في مجلس أستاذه الإمام مالك والإمام يقرأ أحاديث الرسول ﷺ ويقول: عن فلان عن فلان عن صاحب هذا المقام ثم يشير إلى قبر الرسول ﷺ، فرأى - وهو يشير إلى القبر - الشافعي يعبث بثمره في الحصر بعد أن بلها بريقه فوق يده.. فحزن الإمام مالك ثم انتظر حتى أنهى درسه ونادى الشافعي فلما جلس بين يديه فسأله عن الأحاديث التي تلاها، فأخذ الشافعي يرددها واحداً بعد الآخر حتى أتم أربعين حديثاً كما قرأها مالك.. فسر به شيخه وعرف أنه لم يكن يعبث وإنما كان يسجل بريقه ما يقول الإمام حتى لا ينسى.

ومن أهم الشروط التي ينبغي أن تتوفر في طلب العلم تلك الشروط التي

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٩.

سردها الإمام فى بيتيه :

أخى لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان  
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة<sup>(١)</sup> وصحبة أستاذ وطول زمان

ونشرحها فيما يلى تيسيرا لكل طالب علم :

١ - الذكاء : وذلك الذكاء يندرج فى أمرين أولهما : التركيز الشديد فى الحفظ، وينبغى أن يكون الحفظ بعد الفهم والتدقيق بكثرة السؤال للشيخ المعلم حيث يُفتح للمتعلم بين يدى معلمه ما لا يفتح له بدونه، كما يبقى له النور بمقدار ما بقى فى متابعة معلمه، وتأدبه معه واقتدائه به.

ثانيهما : مطالعة كتب المصنفين والعلماء والفقهاء ليفهم مقاصد العلم المطلوب وكما قيل : «كان العلم فى صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب ومفاتهحه بأيدي الرجال». وشرط ذلك أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد فإنهم أفهم له من غيرهم من المتأخرين، فأعمال المتقدمين فى إصلاح دينهم وديناهم على خلاف أعمال المتأخرين، وتحقق الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلى الآن، وهذا يؤكد الحديث : «خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» [أخرجه البخارى ومسلم].

فعلى طالب العلم أن يطلبه من أهله المتحقيقين به وليصبر على ذلك ولا يتعجل، وليبحث عن العلماء ويجلس بين أيديهم ويأخذ من هديهم

(١) بلغة : ما يُتبلَغ به من العيش ولا يفضل، ويعنى هنا : الكفاف والانشغال بطلب العلم وليس بجمع المال الزائد عن الحاجة.

وسمّتهم وأدبهم ويلزمهم السنين الطوال فطول الملازمة مهم ونافع،  
وليرحل إن استطاع إليهم..

أولئك الناس إن عدوا وإن ذكروا ومن سواهم فلغو غير معدود  
وليحفظ طالب العلم علمه كتابة فيقيد الفوائد والفرائد والأبحاث  
المنثورة في غير مظانها ثم ينقل كل ذلك في مذكرة؛ مرتبا له على  
الموضوعات مقيدا رأس المسألة واسم الكتاب ورقم الصفحة والمجلد،  
وللعلماء مؤلفات عدة في هذا منها: بدائع الفوائد لابن القيم، وخبايا  
الزوايا للزركشي، وغيرها.

٢- الحرص: هو التحلي بالثبات، والتثبت لاسيما في المهمات  
والمهمات ومنه الصبر والثبات في التلقي وطى الساعات في الطلب  
على الأشياء فإن «من ثبت نبت» وليتحل بالتأمل فإن «من تأمل  
أدرك» وقيل: «تأمل تدرك»، وعليه فتأمل عند التكلم بماذا تتكلم  
وما هي عائدته.

وتحرز في العبارة والأداء دون تعنت أو تحذلق، وتأمل عند المذاكرة  
كيف تختار القالب المناسب للمعنى المراد، وتأمل عند سؤال السائل  
كيف تتفهم السؤال على وجهه حتى لا يحتمل وجهين، وهكذا.  
وليحرص على العلم بحفظه ووعيه والتحرز من نسيانه بكثرة الحفظ  
والمراجعة والتحقق الكامل من الفهم الصحيح.

كما يحرص على وقته (وليكن حلف عمل لا حلف بطالة وبطن)  
فالحفاظ على الوقت بالجد والاجتهاد وملازمة الطلب والأشياء  
والاشتغال بالعلم والقراءة والمطالعة والتدبر والحفظ والبحث لاسيما في

أوقات شرح الشباب ومقتبل العمر ومعدن العافية فليغتنم هذه الفرصة  
الغالية لينال رتب العلم العالية فإنها: «وقت جمع القلب واجتماع الفكر»  
لقلة الشواغل والصوارف من التزامات الحياة ولخفة الظهر والعيال:

مع الثمانين عاث الضعف في جسدي      وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي  
إذا كتبت فخطى خط مضطرب      كخط مرتعش الكفين مرتعدي  
فقل لمن يتمنى طول مدته      هذى عواقب طول العمر والمدد  
فإن أعملت البدار فهذا شاهد منك على أنك تحمل «كبر الهمة  
في العلم».

٣ - الاجتهاد: من سجايا الإسلام التحلى بكبر الهمة فإنه يجلب  
لك الخير غير المجذوذ، لترقى إلى درجات الكمال فيجري في عروقك  
دم الشهامة والركض في ميدان العلم والعمل متحليا بالفضائل باسطا  
يديك إلى مهمات الأمور ثابت الجأش لا ترهبك المواقف...

كبر الهمة حلية ورثة الأنبياء.. فارسم لنفسك كبر الهمة، واجعل أمام  
عينيك مقولة الإمام على كرم الله وجهه: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»  
وقد قيل: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها فاحذر قول القائل:  
ما ترك الأول للآخر، وصوابه: كم ترك الأول للآخر، فعليك بالاستذكار  
والاستكثار من ميراث النبوة وابذل الوسع في الطلب والتحصيل والتدقيق  
وتذكر قول القائل النابه:

لا لا يكون السرى<sup>(١)</sup> مثل الدنى لا، ولا ذو الذكاء مثل الغبى  
قال الإمام النووي: «ينبغي على المرء أن يكون حريصا على التعلم؛

(١) السرى: الشريف والجمع سراًة.

مواظبا عليه فى جميع أوقاته، ليلا ونهارا، وسفرا وحضرا، ولا يُذهب من أوقاته شيئا فى غير العلم إلا بقدر الضرورة لأكل ونوم قدرا لا بد له منه ونحوهما، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وليس بعامل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوّتها».

٤ - البُلغة: المال فتنة، قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة فتنة، وفتنة

أمتى المال» [أخرجه الترمذى]، وقال حسن صحيح غريب.

ونحن فى زمن الماديات وصراع الناس على الكماليات، وهموم الناس الدنيئة التى خربت قلوبهم وعلاقتهم بربهم فى زمن التعاسة.

قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدرهم والدينار» [أخرجه البخارى].

فى هذا الزمن الحرج يحتاج الإنسان إلى التخلص من ربة المادية الطاغية، وذلك ببذل المال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>، فهيا أخى طالب التربية لترب نفسك على الزهد فى الدنيا وعلى الاستخشان والرضا بالقليل.. ألا يكون للدنيا قيمة فى قلبك فهى لا تساوى عند الله جناح بعوضة فلا تفرح بإقبالها ولا تحزن على إدمارها، ولتستو عندك الحالتان؛ لأنك عبد للمعطى المانع، قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

قيل للإمام أحمد: الرجل يملك ألف دينار ويكون زاهدا؟

قال: نعم، إذا لم يفرح إذا زادت ولم يحزن إذا نقصت.

(١) سورة الحشر الآية ٩.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣.

فالمحمود من سائر الأشياء المتوسط، فالمنفق كل ما يجد مبدراً،  
والبخيل يخبئ المال ويمنع نفسه حظها، ومعلوم أن المال لا يراد لنفسه؛  
بل للمصالح، فإذا بذر الإنسان فيه احتاج إلى بذل وجهه ودينه ومنة  
البخلاء عليه، وهذا لا يصلح، (ولأن يخلف الإنسان لعدوه، خير من  
أن يحتاج إلى صديقه).

فينبغي على طالب العلم أن يقتصد وقد ورد في الدعاء النبوي: «اللهم  
إنى أسألك القصد فى الغنى والفقرة»، وقد قال ابن الجوزى رحمه الله:  
«رأيت خلقاً كثيراً من العلماء تضيق عليهم الدنيا فيقزعون إلى مخالطة  
السلطين لينالوا من أموالهم وهم يعلمون أن السلطين لا يكادون يأخذون  
الدنيا من وجهها ولا يخرجونها فى حقها، فإن أكثرهم إذا حصل له  
خراج ينبغى أن يصرف إلى المصالح وهبه لشاعر!

وربما غزا فأخذ ما ينبغى أن يقسّم على الجيش فاصطفاه لنفسه!  
هذا غير ما يجرى من الظلم من المعاملات! وقد رُئى رجل عالم يخرج  
من دار يحيى بن خالد البرمكى، فقال: أعوذ بالله من علم لا ينفع،  
ألم ير المنكرات ولا ينكر، ويتناول من طعامهم الذى لا يكاد يحصل  
إلا بظلم فينطمس قلبه ويحرم لذة المعاملة للحق سبحانه ثم لا يقدر له  
أن يهتدى به أحد.. فقد حبيب إليه الدنيا ولا خير- والله - فى سعة  
من الدنيا ضيقت طريق الآخرة.

وأنا أرى اليوم أقواما صابروا عطش الدنيا فى هجير الشهوات زمان  
العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضا، وبقيت أذكاهم تُروى  
فتروى صداً القلوب وتجلو صداها..

هذا الإمام أحمد الحبيب إلى قلوب المؤمنين ربما يحتاج ولو أشار لأنته

العطايا من كل حذب وصوب ولكنه يقول:

عزیز علیّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن، ويحتاج فيخرج إلى اللقاط<sup>(١)</sup> ولا يقبل عطاء السلطان.

وهذا إبراهيم الحربى يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم ألف دينار. وهذا بشر الحافى يشكو الجوع فيقال له: يُصنع لك حساء من دقيق؟ فيقول: أخاف أن يقول الله لى: هذا الدقيق من أين لك؟

وهذا هو عين الورع، وبقيت والله أذكار القوم، وما كان الصبر إلا غفوة نوم.. ومضت لذات المترخصين وبليت الأبدان ووهن الدين.. فاصبر،

الصبر يا من وُفق ولا تغيبن من اتسع له أمر الدنيا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ومتى ضجرت النفس لقلة الصبر فاتل عليها أخبار الزهاد فإنها ترعوى وتستحي وتنكسر إن كانت لها همة أو فيها يقظة<sup>(٤)</sup>.

وعلى طالب العلم التحلى بالقناعة والزهادة، وحقيقة الزهد (الزهد بالحرام والابتعاد عن حماه بالكف عن المشتبهات وعن التطلع إلى ما فى أيدى الناس) ويؤثر عن الإمام الشافعى - رحمه الله تعالى - قوله: (لو أوصى إنسان لأعقل الناس صرف إلى الزهاد) وعليه فليكن

(١) اللقاط: واللقاطة: ما التقط فى الأرض، والشئ، التافه الملقى يأخذه من أراد، (ج) لقاط وهذه المقولة أو هذا الفعل أراه مستحيل الحدوث من الإمام أحمد.

(٢) سورة القصص الآية ٨٣.

(٣) سورة القصص الآية ٨٠.

(٤) صيد الخاطر.

معتدلاً في معاشه بما لا يشينه بحيث يصون نفسه ومن يعول ولا يرد مواطن الذلة والهون.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «لقد جنّت من شنقيط ومعى كنز، قلّ أن يوجد عند أحد، وهو القناعة ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إليها، ولكني لا أوثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية» فرحمه الله تعالى رحمة واسعة. آمين.

٥ - صحبة أستاذ: الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقى عن الأساتذة والمشافهة للأشياخ، وقد قيل: (من دخل في العلم وحده خرج وحده) وقيل: من لا شيخ له فالشيطان شيخه، أى من دخل في طلب العلم بلا شيخ خرج منه بلا علم، إذ العلم صنعة، وكل صنعة تحتاج إلى صانع فلا بد إذا لتعلمها من معلمها الحاذق.

يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم - أحياناً - وهي معدومة عند المعلم، وهي التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بروغان البشر، وقلة الخبرة بالإعراب، أو فساد الموجود منه، ورداءة النقل، فهذه كلها معوقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم...

قال الأوزاعي: كان هذا العلم كريماً يتلاقاه الرجال بينهم، فلما دخل في الكتب دخل فيه غير أهله.

ولابن خلدون مبحث نفيس في هذا في مقدمته، وقال بعضهم:

من لم يشافه عالماً بأصوله فيقينه في المشكلات ظنون

وكان أبو حيان ينشد:

يظن الغمر أن الكتب تهدي      أما فهم لإدراك العلوم  
وما يدري الجهول بأن فيها      غوامض حيرت عقل الفهيم  
إذا رُمت العلوم بغير شيخ      ضللت عن الصراط المستقيم  
وتلتبس الأمور عليك حتى      تصير أضل من «توما الحكيم»

وقد قال تعالى: ﴿فَتَلَوُوا هَٰذَا الذِّكْرَ إِن كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

فالعلماء هم العارفون بشرع الله المتفقهون في دينه العاملون بعلمهم على هدى وبصيرة، أولو الحكمة، أئمة الدين، ورثة النبوة، حملوا العلم عن الأنبياء في صدورهم، وانطبعت أعمالهم بما قر في جنانهم. هم رأس الجماعة التي أمرنا بلزومها وحذرنا من مفارقتها، هم أكثر الناس خوفا من الله وقد عملوا بما زادهم وجلا وخشية فلا يشترون بعلمهم شيئا من متاع الدنيا الفاني.

وعلى الطالب أن ينتبه لشيخه ويجمع نفسه ويتفاعل معه وليتق انصراف الذهن وفتوره، ولذا قال بعض الأدباء: نشاط القائل على قدر فهم المستمع. وقد قال قائل: حدث القوم ما رمقوك بأبصارهم فإذا رأيت منهم فترة، فانزع.

وعلى الطالب ألا يأخذ علمه من مبتدع: رافضى أو خارجى أو مرجئى أو قدرى... فإنه لن يبلغ مبلغ الرجال؛ ولن يكون صحيح العقيدة في الدين متين الاتصال بالله صحيح النظر يقفو الأثر، إلا بهجر المبتدعة وبدعهم.

٦- طول زمان: ينبغى لطالب العلم ألا يستكثر الأوقات التي يقضيها

(١) سورة الأنبياء الآية ٧.

فى طلبه للعلم بل عليه أن يصبر ليتثبت من علمه ولا يسوف فى اشتغاله ولا يؤخر تحصيل فائدة فالتأخير آفات وكفى أنه يضع عليه من الفوائد ما يمكنه الإمام بها لولا تقصيره وكسله، قال الربيع: لم أر الشافعى آكلا بنهار ولا نائما بليل؛ لاهتمامه بالتصنيف.

فينبغى أن يغتتم التحصيل فى وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب وقوة البدن ونهاية الخاطر وقلة الشواغل قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة، قال عمر رضى الله عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا، وقال الشافعى: تفقه قبل أن ترأس؛ فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه.

\*\*\*

إنما يصلح للتعليم قوم قنعوا من دنياهم بأن يعيشوا على ضروريات الحياة، وفى حدود ضيقة من الرزق... ليس يصلح للتعليم من يطلبه للغنى والجاه، وليس يصلح له كذلك من سُدت فى وجوهه طرق الكسب الأخرى، ثم رأى أن باب التعليم وحده هو المفتوح أمامه فدخله مرغما، إنما يصلح للتعليم من كان يرى - بحكم طبيعته ومزاجه - أن لذة التعليم تفوق كل لذة، وأنه سعيد باحترافه التعليم، وأن ما يجده من لذة فى حرفته يعوض ما يجده من ضيق فى رزقه وضآلة فى جاهه، وإلا كانت حرفة التعليم عذابا، وكل درس يؤديه ألما يمتد بامتداد الدرس؛ وكل ساعات فراغه شكوى من الزمان أن رماه بحرفة التعليم<sup>(١)</sup>..

(١) فيض الخاطر: أحمد أمين ص ٢٩، مكتبة الآداب، القاهرة.

وفى النهاية يقرر الشافعى فى بيتين طريفيين أن المعاصى سبب لصعوبة التعلم وتعسره فيقول :

شكوتٌ إلى وكيع<sup>(١)</sup> سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى  
وأخبرنى بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصى

وما كان ذنب الشافعى ومعصيته إلا إنه تناول عشاءه فأثقل فنام عن ورده... ألا فليفهم كل لبيب، وكل لبيب بالإشارة يفهم!

### حب الصحابة وآل البيت والصالحين

شهدت بأن الله لا رب غيره وأشهد أن البعث حق وأخلصُ  
وأن عرى الإيمان قول مُبينُ وفعل زكىُّ قد يزيد وينقص  
وأن أبا بكر خليفة ربه وكان أبو حفص<sup>(٢)</sup> على الخير يحرص  
وأشهد ربي أن عثمان فاضلُ وأن علياً فضله متخصص  
أئمة قوم يُهدى بهداهمُ لحي الله<sup>(٣)</sup> من إياهمُ ينتقص<sup>(٤)</sup>

\*\*\*

يا راكبا قف بالمحصَّب من منىِّ واهتف بقاعد خيفها<sup>(٥)</sup> والناهض<sup>(٦)</sup>

(١) وكيع : معلم الشافعى.

(٢) أبو حفص : عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٣) لحي الله : قبح الله.

(٤) ينتقص : ينتقص ويقلل من قدرهم.

(٥) قاعد خيفها : ساكن الخيف ، وهو مكان بالحجاز.

(٦) الناهض : مكان بالحجاز.

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى      فيضاً كملتطم<sup>(١)</sup> الفرات الفاض  
إن كان رفضاً حبُّ آل محمدٍ      فليشهد الثقلان<sup>(٢)</sup> أنى رافضى<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

أحب الصالحين ولست منهم      لعلى أن أنال بهم شفاعه  
وأكره من تجارته المعاصي      ولو كنا سواء فى البضاعة

\*\*\*

لقد زان البلاد ومن عليها      إمام المسلمين أبو حنيفة  
بأحكام وآثار وفقهه      كآيات الزبور على الصحيفة  
فما بالمشركين له نظيرٌ      ولا بالمغربيين ولا بكوفة  
فرحمة ربنا أبدا عليه      مدى الأيام ما قرئت صحيفة

\*\*\*

يا آل بيت رسول الله حكيم      فرض من الله فى القرآن أنزله  
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم      من لم يصل عليكم لا صلاة له

\*\*\*

---

(١) كملتطم: كتلاطم أمواج الفرات وهو فاض.

(٢) الثقلان: الجن والإنس.

(٣) رافضى: الرافضية أو الروافض فرقة من غلاة الشيعة تسمى بذلك لرفضهم نصرة أئمتهم وعدم متابعتهم، وغدرهم بهم، وقيل لرفضهم زيد بن على بن الحسين لثناؤه على عمر وأبى بكر - رضى الله عنهما - فقال زيد: رفضونا اليوم. ويسمون أيضا (بالاثنى عشرى) لاعتقادهم بإمامة الاثنى عشر إماما نصا وبقينا وهو اعتقاد خاطئ. ويسمون الجعفرية؛ لأن مذهبهم فى الفقه مذهب الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه.

إذا في مجلسٍ نذكر علياً وسبطيه<sup>(١)</sup> وفاطمة الزكية<sup>(٢)</sup>  
يقال تجاوزوا يا قومُ هذا فهذا من حديث الرافضية  
برئت إلى المهيمن من أناسٍ يرون الرفضَ حب الفاطميّة<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

### شرح الأبيات

قال أبو سعيد الخدرى وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة:  
آل البيت هم على وفاطمة والحسن والحسين وذرياتهم وما تناسل منهم.  
وقال زيد بن الأرقم: الذين تحرم عليهم الصدقة بعد النبي ﷺ  
وهم: آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس لحديث الرسول ﷺ:  
«أنشدكم الله في أهل بيتي» قالها ثلاثاً، وفسر زيد رضى الله عنه أهل  
بيته، بآل على وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس والراوى أعلم بما يرويه.  
وقد اختلف المفسرون فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ  
عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾<sup>(٤)</sup> فمنهم من يقول: إن أهل البيت لفظ يُطلق  
على (على كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء وأبنائهما ونسلهما)، ومنهم من  
يرى أنه لفظ يطلق على أسرة النبي ﷺ تمييزاً لهم عن المهاجرين والأنصار.  
ومنهم من يقول: إنه لفظ يتسع من وجوه شتى ليشمل فروع بنى هاشم  
وما لهم من موالٍ.

(١) سبطية: السبط ولد الولد والجمع أسباط.

(٢) الزكية: الطاهرة النقية.

(٣) الفاطمية: كل من انتسب للسيدة فاطمة الزهراء بالنسب أو الحب.

(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٣.

وعند أهل السنة: لا يقتصر معنى أهل البيت على بنى هاشم بمعنى ضيق أو واسع؛ بل يعتبر أهل البيت كل أزواج النبي ﷺ وأبنائه وكذلك عليا زوج ابنته الزهراء.

وأهل البيت مدرسة مضيئة ونجوم متألقة في سماء الإسلام العظيم فهم القدوة الشامخة التي اقتدت بالرسول ﷺ نهلوا من علمه ونشأوا في بيته وساروا على نهجه؛ يدعون إلى كتاب الله والاعتصام بسنة نبيه ﷺ ويضربون في سلوكهم الأمثال السامية للأمة.

يقول الرسول ﷺ: «النجوم أمان أهل السماء فإذا ذهب النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض» [أخرجه أحمد في المناقب].

وقد أوصانا النبي ﷺ بأهل البيت<sup>(١)</sup> في أحاديث كثيرة نذكر منها:

○ «أذكركم الله في أهل بيتي» [رواه مسلم].

○ «شفاعتي لأمتي من أحب أهل بيتي» [كنز العمال].

○ «خيركم خيركم لأهلي من بعدي» أورده الهيثمي في مجمع الزوائد.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي» [أخرجه الترمذي].

○ وقال رسول الله ﷺ: «والله لا يدخل قلب رجل مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرايتي».

---

(١) أهل البيت وآل البيت، ولا يُطلق لفظ آل البيت إلا على آل بيت النبي صلى الله عليه

وقد أخرج الديلمي عن علي كرم الله وجهه قال رسول الله ﷺ: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم الحوائج، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه».

وأخرج الحاكم في المستدرک، وقال صحيح الإسناد: روى أبو ذر أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها فقد نجا ومن تخلف عنها هلك».

اللهم صل على محمد وعلى أهل البيت الأخيار الأطهار، واجعلنا نُحشر في زمرة من يارب العالمين.

ربط الشافعي الإيمان بالله بتكريم آل بيت رسوله ﷺ لإيمانه بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾<sup>(١)</sup>.

وعقيدته واضحة في الآيات فهو يعتقد يقينا بوجوب محبة الله والإيمان به وحب رسوله ﷺ وآل بيته الكرام، ويقول لمن ينكر عليه حب علي وفاطمة وذريتهما:

برئت إلى المهيمن من أناسٍ يرون الرفض حب الفاطمية

فرغم أنه لا ينتمي للروافض المتشعبة فإنه لا يمانع أن ينسبوه إليهم إذا كان ذلك بسبب حبه للفاطمية.

كما يعتقد الشافعي يقينا في وجوب حب الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فهم أفضل الخلق بعد

(١) سورة الشورى الآية ٢٣.

الأنبياء ونحن مطالبون بحب الصحابة أجمعين لقوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم» والمهاجرون والأنصار أجمعون نحن مطالبون بحبهم وتقديرهم فقد وردت الآيات مثنية عليهم في كتاب الله:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (١)

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْقَدِّمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَبَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (٢)

ثم يمدح الشافعي الإمام أبو حنيفة وقد استفاد من فقهه وتلامذته وعلى رأسهم محمد بن الحسن - كما سبق - فقد هيا له ذلك الجمع بين فقه المدينة وفقه العراق أو بين فقه النقل وفقه العقل.

والإمام أبو حنيفة إمام عظيم في الفقه والأحكام؛ يقول فيه الشافعي: «الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة»، وقال عبد الله ابن المبارك: «إن كان الأثر قد عُرف واحتيج إلى الرأي فرأى مالك وسفيان وأبي حنيفة، وأبو حنيفة أحسنهم وأدقهم فطنة وأعوصهم على الفقه وهو أفقه الثلاثة».

(١) سورة الحشر الآيتان ٨ - ٩.

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٠.

وقال معمر بن راشد: ما أعرف رجلاً يحسن أن يتكلم في الفقه،  
أو يسعه أن يقيس ويشرح لمخلوق طريق النجاة في الفقه أحسن معرفة  
من أبي حنيفة.

### نكران الجميل

تعصى الإله وأنت تظهر حبه      هذا محالٌ في القياس بديعٌ  
لو كان حبك صادقاً لأطعته      إن المحب لمن يحب مطيعٌ  
في كل يوم يبتديك بنعمة      منه وأنت لشكر ذاك مُضيعٌ

\*\*\*

يقول عز من قائل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ  
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

ما أوجدنا ونحن في غمرة انشغالنا بالحياة أن نسمو بأرواحنا فوق  
ماديتها الطاغية، ونعمر قلوبنا بالتقوى وحب الله، وأن نظهر نفوسنا  
بالطاعة لله، ومجاهدة النفس وهجر المعاصي وقهر لذات الدنيا الفانية،  
وطلب لذة الآخرة الباقية، وأن ندع هوى النفس واقتراف الذنوب وننشد  
رضوان الخالق ونبغى جنة الخلود.

إن تزكية النفوس ليست فحسب علما يكفي فيه الدراسة والبحث؛  
ولكنها- بجانب ذلك- ممارسة وأخلاق وسلوك وعمل وتطبيق،  
ولقد وضح ذلك الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله- حين قال عن نفسه:

(١) سورة آل عمران الآية ٣١.

«أقبلت بهمتي وعلمتُ أن الطريق إلى الله إنما يتم بعلم وعمل». والخُطوة الأولى للوصول إلى الله هي التوبة من الذنوب:

خل الذنوب صغيرها      وكبيرها فهو التقى  
واصنع كماشٍ فوق      الشوك يحذر ما يرى  
لا تحقرن صغيرة      إن الجبال من الحصى

يقول الإمام الغزالي: «إن التوبة من الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب، وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين ورأس مال الفائزين وأول أقدام المرئيين ومفتاح استقامة المائلين».

يا مدمن الذنب أما تستحي      والله في الخلوة ثانيكا  
أغرّك من ربك إمهاله      وستره طول مساويكا؟!

ولقد اشترط العلماء لصحة التوبة ثلاثة شروط إن فقد منها شرط لم تصح التوبة هي:

١- الإقلاع عن المعصية في الحال.

٢- الندم على المعصية والمخالفة.

٣- العزم على عدم العودة.

وإذا تعلقّت بآدمي (أى بحق شخص) فأضف إلى ذلك رد المظلمة إلى صاحبيها، والتوبة المستوفية لهذه الشروط هي التوبة النصوح الصادقة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَتَّأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة التحريم الآية ٨.

أيا عبدكم يراك الله عاصيا      حريصا على الدنيا وللموت ناسيا  
 أنسيت لقاء الله والقبر والبلى      ويوما عبوسا تشيب فيه النواصيا  
 إذا المرء لم يل بس ثيابا من التقى      تقلب عريانا ولو كان كاسيا  
 وخير خصال المرء طاعة ربه      ولا خير فيمن كان لله عاصيا  
 ولو كانت الدنيا تدوم لأهلها      لكان رسول الله حيا وباقيا  
 ولكنها تفنى ويفنى نعيمها      وتبقى المعاصى والذنوب كما هي

يتعجب الإمام الشافعى من حال الإنسان الجاحد لحق ربه ، الناسى لفروض دينه ، التابع لعدوه الشيطان فى كل صغيرة وكبيرة ، ثم يدعى بعد ذلك الاعوجاج- محبة ربه فيقول له الشافعى :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه      هذا محال فى القياس بديع  
 لو كان حبك صادقا لأطعته      إن المحب لمن يحب مطيع

إن حب الله والإيمان به يستوجب طاعته ، وهذه الطاعة والاتباع حقيقة قول الشهادتين : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبُّكُمْ اللَّهُ ﴾<sup>(١)</sup>.

كيف يدعى المحبة من لا يطيع ولا يتبع هدى السماء ، إن المحبة تستلزم الطاعة ، والطاعة دليل الإيمان الكامل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>.

أما الذين يدعون المحبة وهم على عصيانهم ، فيقال لهم : ﴿ قَالَتْ

(١) سورة آل عمران الآية ٣١.

(٢) سورة الحجرات الآية ٣.

الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تَزِمُوا اللَّهَ وَلَا لَكُمْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ  
وَأَنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا  
الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ  
وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴿١﴾

إن الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، وبدون هذه  
الأركان الثلاثة لا يكتمل الإيمان لذا ورد في الحديث: «لا يزنَى الزانى  
حين يزنَى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» أى  
ليس مكتمل الإيمان حال تلبسه بهذه الكبيرة، وفي حديث آخر: «والله  
لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»<sup>(٢)</sup>: أى لا يؤمن إيماناً كاملاً.

والإيمان هو الحياة، والأشقياء بكل معانى الشقاء هم المفسدون من نور  
الإيمان ومن رصيد الطاعة والتقوى، فهم أبداً فى تعاسة وغضب ومهانة  
وذلة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾<sup>(٣)</sup>.

لا يُسعد النفس ويزكيها ويظهرها ويفرحها ويذهب غمها وهمها  
وقلقها إلا الإيمان بالله رب العالمين، ولا طعم للحياة أصلاً إلا بالإيمان،  
وبقدر إيمانك - قوة وضعفاً، وحرارة وبرودة - تكون سعادتك وراحتك  
ومحبتك لله ورسوله ﷺ...

إن المعصية تجعل القلب مظلماً كالليل البهيم إذا ادلهم فتصير ظلمة  
المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة،

(١) سورة الحجرات الآيتان ١٤ - ١٥.

(٢) بوائقه: شروره ومفاسده.

(٣) سورة طه الآية ١٢٤.

وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرة الإنسان حتى يقع فى البدع والضلالات والمهلكات وهو لا يشعر... كأعمى خرج فى ظلمة الليل يمشى وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا فيه يراه كل أحد.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما: «إن للحسنة ضياء فى الوجه ونورا فى القلب، وسعة فى الرزق، وقوة فى البدن، ومحبة فى قلوب الخلق، وإن للسئنة سوادا فى الوجه، وظلمة فى القلب، ونقصا فى الرزق، وبغضا فى قلوب الخلق».

إن من علامات محبة العبد لله أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون، والدين كله تحت هذه الغيرة فأقوى الناس ديناً أعظمهم غيرة، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حُرِّمَ عليه».

فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلى، وإن زعم أنه من المحبين. وإن علامات محبة الله تعالى أن يكون العبد مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه هو فى ظاهره وباطنه فيجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبا على طاعة الله تعالى متقربا إليه بالنوافل.

شرط المحبة أن توافق من تحب على محبته بلا عريان  
فإذا ادعيت له المحبة مع خلافك ما يحب فأنت ذو بهتان

إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة؛ إنما يضاد كمالها ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ﷺ فيحده إلى أن أتى به يوما فحده فلعله رجل فقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعه؛ فإنه يحب الله ورسوله» [أخرجه البخارى].

فلم تخرجه المعصية عن المحبة وإنما تخرجه عن كمال المحبة. وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم، فإذا اقترنت المحبة بمهابة المحبوب وإجلاله وتعظيمه وشهوته عز جلاله وعظيم سلطانه؛ انكسرت نفسه له وذلت لعظمته واستكانت لعزته وتصاغر لجلاله. فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه. والمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### استغفار وتوبة

إن كنت تغدو في الذنوب جليدا<sup>(٢)</sup> وتخاف يوم العاد وعيدا  
فلقد أتاك من المهيمن عفوه وأفاض من نعم عليك مزيدا  
لا تياسن من لطف ربك في الحشا في بطن أمك مضغة ووليدا  
لو شاء أن تصلى جهنم خالدا ما كان ألهم قلبك التوحيدا

\*\*\*

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥.

(٢) جليدا: جامدا جريئا.

قلبي برحمتك اللهم ذو أنس وما تقلبت من نومى وفى سنتى<sup>(١)</sup>  
 لقد مننت على قلبى بمعرفة ولقد أتيت ذنوباً أنت تعلمها  
 فى السر والجهر والإصباح والغلس<sup>(٢)</sup> إلا وذكرك بين النفس والنفس  
 بأنك الله ذو الآلاء والقُدُس<sup>(٣)</sup> ولم تكن فاضحى فيها بفعل مُسى<sup>(٤)</sup>  
 تجعل على إذا فى الدين من لبس وكن معى طول دنيائى وآخرتى  
 ويوم حشرى بما أنزلت فى عبس<sup>(٥)</sup>

\*\*\*

ولما قسا قلبى وضافت مذاهبى<sup>(٦)</sup> جعلتُ الرجا منى لعفوك سُلماً  
 تعاطمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظماً  
 فمازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو مِنّة وتكرماً  
 فلولاك لم يصمد لإبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك<sup>(٧)</sup> آدماء  
 فلله در العارفِ الفدب إنه تفيض لفرط الوجد<sup>(٨)</sup> أجفانه دماء  
 يقيم إذا ما الليل مد ظلامه على نفسه من شدة الخوف ماتماً

(١) الغلس : ظلام آخر الليل.

(٢) سنة : نعاس وغفوة.

(٣) القُدُس : الطاهر.

(٤) مسى : سبى.

(٥) عبس : سورة عبس

(٦) مذاهبى : طرقى وسبلى.

(٧) صفيك : من اصطفيته أى اخترته.

(٨) الوجد : الحزن.

فصيحها إذا ما كان في ذكر ربه وفي ما سواه في الوري<sup>(١)</sup> كان أعجما  
ويذكر أياما مضت من شبابه وما كان فيها بالجهالة أجرما  
فصار قريين الهم طول نهاره أخوا السُهد<sup>(٢)</sup> والنجوى<sup>(٣)</sup> إذا الليل أظلما  
يقول حبيبى أنت سؤلى وبغيتى كفى بك للراجين سؤلا ومنعما  
ألت الذى غذيتنى وهديتنى ولازلت منانا على ومنعما  
عسى من له الإحسان يغفر زلتى ويستر أوزارى وما قد تقدا

\*\*\*

### شرح الأبيات

﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾<sup>(٤)</sup>  
﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾<sup>(٥)</sup>

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» [متفق عليه].  
وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق

(١) الوري: الخلق.

(٢) السهد: الأرق.

(٣) النجوى: مناجاة الله سرا، والتضرع إليه.

(٤) سورة الزمر الآية ٥٣.

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٦.

الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: «إن رحمتي سبقت غضبي» [متفق عليه]، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾<sup>(١)</sup>.

وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» [متفق عليه].

وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة رفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول: هذا فكاكك من النار» وفي رواية عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم» [رواه مسلم].  
يدنو الأجل فيبكي الشافعي ويتضرع إلى الله مولاه وهو على فراش الموت، راجيا ربه أن يعفو عنه معترفا بذنبه - وحسنات الأبرار سيئات المقربين - ويستغفر ويتوب... ومن خير الأدوية التي يتداوى بها العبد لإصلاح قلبه وأنفعها وأفضلها: الاستغفار.. إنه دواء نافع ومزيل قوى للذنوب، فكل ذنب وكل معصية تترك أثرا وسوادا على القلب فيأتي الاستغفار فيزيل الأثر ويصقل القلب، كما قال النبي ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء في قلبه فإن تاب ونزع<sup>(٢)</sup> واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى

(١) سورة الأنعام الآية ٥٤.

(٢) نزع: تركه وأقلع عنه «الذنب».

تعلو قلبه ، ذلك الرين<sup>(١)</sup> الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> ، [رواه أحمد فى مسنده].

قال ابن القيم فى الفوائد ص: ٢٢٦ :

«كان النبى ﷺ يقول فى خطبته : «الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا» [أخرجه أبو داود والترمذى]. وفى الحديث: من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا»، وسيد الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا»، وسيد الاستغفار كما جاء فى الحديث: «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبنى ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» [أخرجه البخارى]. وفى الحديث الصحيح: أن رجلا أتى إلى النبى ﷺ فقال: «يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ وأنا كبرت فأخبرنى بشيء أتشبث به ، قال: «لا يزال لسانك رطبا بذكر الله». والذكر يشمل الاستغفار والتهليل والتكبير والتمجيد والحمد والصلاة على رسول الله ﷺ.

إن من أسباب راحة البال استغفار ذى الجلال ، قال الشيطان : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم ، فقال الله تعالى : «فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى» [رواه أحمد].

– أيها الذئب : إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج ولا تقول قد تبت وندمت فهلا زال عنى من الجزاء ما أكره ! فلعل

(١) الرين : ران : غلب وغطى وطبع على القلوب ، والرين : الغطاء والسواد.

(٢) سورة المطففين الآية ١٤ .

توبتك ما تحققت، وإن للمجازاة زمانا - كما يقول ابن الجوزى -  
يمتد امتداد المرض الطويل، فلا تنجع فيه الحيل حتى ينقضى أوانه،  
وإن بين زمان ﴿وَعَصَى﴾ إلى إبان ﴿فَلَقَى﴾<sup>(١)</sup> مدة مديدة.

فاصبر أيها الخاطن حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس  
فإذا عصرته كف الأسي ثم تكررت دُفَعُ الغسلات حُكِمَ بالطهارة.  
بقي آدم يبكي على زلله ثلاث مائة سنة.

ومكث أيوب - عليه السلام - في بلائه ثمانين سنة.

وأقام يعقوب يبكي على يوسف - عليهما السلام - ثمانين سنة.

وللبلايا أوقات ثم تنصرم، ورُبَّ عقوبةٍ امتدت إلى زمن الموت فاللزام  
لك أن تلازم محراب الإنابة وتجلس جلسة المستجدي وتجعل طعامك  
القلق وشرابك البكاء فر بما قديم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيرا.  
وإن بتَّ في سجنك فر بما ناب حزن الدنيا عن حزن الآخرة، وفي  
ذلك ربح عظيم.

والواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي فإن نارها تحت الرماد.  
ولا ماء يطفئ تلك النار إلا ما كان من عين العين؛ أيها النادم: قربت سفينة  
العمر من ساحل القبر.. ومالك في المركب بضاعة تريح!!

رُوى عن كعب الأحمبار رضى الله تعالى عنه أنه قال: أوحى الله تعالى  
إلى موسى عليه السلام: «يا موسى آليتُ - أى حلفت - على نفسي قبل  
أن أخلق السماوات والأرض والدنيا والآخرة أنه من لقيني وهو يشهد أن

---

(١) جزء من الآية ١٢١ فى سورة طه ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ وجزء من الآية ﴿فَلَقَىٰ﴾  
آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَيْفَ كُنْتُمْ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ فى سورة البقرة الآية ٣٧.

لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ صادقاً من قلبه، كتبتُ له براءة وعتقاً من النار، وأوصيتُ ملك الموت عند قبض روحه أن يكون أرفق به من والديه، وأوصيتُ منكراً ونكيراً إذا دخلا عليه في قبره ألا يروعاها، وأوسع له في قبره وأؤنسه من وحشة قبره، ولا يسألني يوم القيامة عن شيء إلا أعطيته إياه».

وفى خبر مسند: أن رجلاً يؤمّر به إلى النار فإذا بلغ ثلث الطريق التفت، فإذا بلغ نصف الطريق التفت، فإذا بلغ ثلثي الطريق التفت، فيقول الله تعالى: ردوه، ثم يسأله فيقول: لم التفت؟ - والله تعالى أعلم - فيقول: لما بلغت ثلث الطريق تذكرت قولك: ﴿وَرُبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾<sup>(١)</sup>، فقلت: لعلك تغفر لي.

فلما بلغت نصف الطريق تذكرت قولك: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup>، فقلت: لعلك تغفر لي، فلما بلغت ثلثي الطريق تذكرت قولك: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(٣)</sup>، فازددت طمعاً، فيقول الله عز وجل: اذهب فقد غفرتُ لك.

ثم يذكر الشافعي وهو بين يدي ربه وملك الموت ينتظر الأمر، يذكر منن ربه عليه فيقول بعين باكية:

(١) سورة الكهف الآية ٥٨.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٥.

(٣) سورة الزمر الآية ٥٣.

لقد مننتَ على قلبي بمعرفةٍ بأنك الله ذو الآلاءِ والقُدسِ  
وقوله:

أست الذي غذيتني وهديتني ولازلت منانا على ومنعما

وكانه يرنو إلى دعاء إبراهيم إذ يستجدي ربه الرحمات مكتفياً  
بالتوكل عليه مستغنياً به عن الخلق: ﴿فَأَنهَمَّ عُدُوًّا لِإِلَهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ  
﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ  
فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي  
خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾<sup>(١)</sup>.

ثم يُنهى نجواه بقول كريم عظيم في فحواه ومعناه:

عسى من له الإحسان يغفر زلتى ويستر أوزارى وما قد تقدما  
وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

قال عكرمة: الحسنى: الرحمة، وقال غيره: السعادة، هم الذين  
سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال: ﴿هَلْ جَرَأَهُ  
الْإِحْسَانُ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٧ - ٨٢.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠١.

(٣) سورة يونس الآية ٢٦.

(٤) سورة الرحمن الآية ٦٠.

فكما أحسنوا العمل فى الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيى الثواب، فأولئك عن النار مبعدون لا يسمعون حسيها: أى صوت حياتها على الصراط فسلمهم من المحذور المرهوب، وحصل لهم المطلوب المحبوب.

\*\*\*

## خاتمة

رحلة ممتعة شائقة نافعة سرت فيها مع إمامنا الشافعي وخضت فيها بحار فكره ومبادئه وأخلاقياته، كنت خلالها مبحرة على ضفاف ديوانه العظيم شارحة معظم أبياته شرحا مسلطا على أخلاقيات الشافعي ومبادئه ومثله لأكشف عن جوهر ومعدن هذا الإنسان النفيس ليستفيد من كلماته كل من يقرؤه مستندة في هذا الشرح إلى مراجع متنوعة في التفسير والحديث والتاريخ وكتب الأخلاق والسير، ووصايا الرسول ﷺ مع الرجوع للمعاجم اللغوية قدر الحاجة محاولة تبسيط الشرح مع عدم الإخلال بأى معنى، مستنيرة بآيات الذكر الحكيم التي حفظها الشافعي وملاً بفحواها شعره وسلك بها طريقه في الحياة، فكان - رحمه الله - قدوة حية ما بقيت السماوات والأرض، وإلى أن يجمع الله الناس ليوم لا ريب فيه..

هذا... فإن كنت قد أصبت وجودت وأتقنت فمن الله الرحيم الحنان المنان.. وإن كنت قد أخطأت أو سهوت فمن نفسي ومن الشيطان، والله أسأل أن ينفعني بما كتبت، و أن ينفع بهذا الجهد المتواضع كل من سيطلع عليه من قريب أو بعيد عاجلا أو آجلا،  
والله من وراء القصد... أ.هـ

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا صَيْرِيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وِرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

صدق الله العظيم.

## المراجع

- ديوان الإمام الشافعي، تعليق محمد عفيف الزغبى، دار الجيل - بيروت.
- ديوان الإمام الشافعي، تعليق د/ إسماعيل العقباوى، دار الحرم - القاهرة.
- الوصايا لأبى عبد الله الحارث المحاسبى - دار الكتب العلمية - بيروت.
- مكاشفة القلوب لأبى حامد الغزالي - دار المنار بالقاهرة.
- الأنابيش: عبد الرحمن الضبع - مكتبة الإيمان بالمنصورة.
- صيد خاطر لأبى الفرج بن الجوزى - مكتبة الكليات الأزهرية.
- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه - المطبعة المصرية - مصر.
- المستطرف فى كل فن مستظرف: شهاب الدين الإبشيهى - دار إحياء التراث العربى - لبنان.
- الأئمة الأربعة: أحمد الشرباصى - كتاب الهلال.
- الأم للشافعي، تحقيق وتعليق: د. محمد إبراهيم الحفناوى.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة: الراغب الأصفهاني، تحقيق الدكتور/ أبواليزيد العجمى دار الوفاء - دار الصحوة.
- منهج القاصدين لابن قدامة المقدسى: دار إحياء الكتب العلمية - القاهرة.

- وصايا الرسول ﷺ وأثرها في تقويم الفرد: د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار - القاهرة.
- منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين: عز الدين بليق - دار الفتح للطباعة والنشر - بيروت.
- تفسير ابن كثير: مكتبة مصر - الفجالة.
- كونوا ربانيين: عائض بن عبد الله القرني، دار ابن حزم - بيروت.
- الجواهر اللؤلؤية في شرح الأربعين النووية لمحمد بن عبد الله الدمياطي دار اليمامة - بيروت.
- حلية طالب العلم: بكر بن عبد الله أبو زيد: دار الراية - الرياض.
- منطلقات طالب العلم: محمد حسين يعقوب، المكتبة الإسلامية - القاهرة.
- فيض الخاطر: أحمد أمين - مكتبة الآداب - القاهرة.
- أهل البيت وأحفاد النبي: هشام خضر، مكتبة النافذة - القاهرة.
- في ظلال المحبة: عبد الهادي حسن وهبي، دار ابن عفان - السعودية.
- الطريق إلى الله: مملكة المحبين ومستراح العابدين: أحمد عبد الفتاح طلب، دار الندوة العالمية.
- المعاصي الجثام وآثارها على نوى الأفهام: أم أحمد عبد الخالق النبراوي - دار ابن الخطاب - المحلة الكبرى.
- الذنوب وقبح آثارها: محمد بن أحمد سيد أحمد، هدية من مجلة التوحيد.
- من وصايا الرسول: طه عبد الله العفيفي، دار الاعتصام، القاهرة.

## الكاتبة فى سطور (سيرة ذاتية)

- سمية عبد الحليم عويس من مواليد ١٣ / ١ / ١٩٧٢م - الكويت.
- تخرجت فى كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة عين شمس بالقاهرة.
- عضو رابطة الأدب الإسلامى ، وكاتبة فى مركز الإعلام العربى بالقاهرة.
- مؤلفاتها التى صدرت :
  - ١ - لقاء النفوس : دار البشير - القاهرة.
  - ٢ - فى القفص الذهبى.
  - ٣ - أمهات المؤمنين : دار العبيكان بالسعودية.
  - ٤ - العشرة المبشرون بالجنة : دار العبيكان بالسعودية.
  - ٥ - هكذا عرفت الله (رواية) دار الكلمة - القاهرة.
  - ٦ - صُراخ الصمت (مجموعة قصصية) دار الكلمة - القاهرة.
  - ٧ - فى أودية الحرمان (مجموعة قصصية).
  - ٨ - الجنة الموعودة (مجموعة قصصية) دار بوب بروفيشنال - القاهرة.
  - ٩ - قلوب ظامنة (مجموعة قصصية).
  - ١٠ - غريب فى المدينة (مجموعة قصصية).
  - ١١ - د/ مصطفى محمود.. مفكر حائر وفيلسوف يباشر الحياة. دار بوب بروفيشنال - القاهرة.

- ١٢ - بين يدي ملك الموت - تحت الطبع.
- ١٣ - قضايا حضارية - تحت الطبع.
- ١٤ - عالم البنات - مركز الإعلام العربي.
- ١٥ - أطواق النجاة.
- ١٦ - حديث العقول - تحت الطبع.
- ١٧ - تأملات في النفس والناس والحياة - تحت الطبع.
- ١٨ - في أروقة النساء (مجموعة قصصية) تحت الطبع.
- كما فازت الكاتبة ببحث بعنوان «العالم الإسلامي والغرب.. حوار متبادل» في مؤتمر عن كليات بديع الزمان سعيد النورسي بتركيا.. عام ٢٠٠٥م وشاركت ببعض البحوث التابعة «لأدب ياهو» دار سوزلر للنشر - تركيا - القاهرة.